حكايات مع الصوفيين

محمود بطروخة

وكالة سفنكس
للفنون والآداب

حكايات مع الصوفيين

محمود بطروخة

ISBN: 978 – 977 – 6299 –23-4

وكالة سفنكس للفنون والآداب

٧ شارع معروف الدور السابع

وسط البلد، القاهرة

ت وفاكس: ٢٥٧٩٢٨٦٥

Sphinx_agency@yahoo.com

www.sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2014

حكايات
مع الصوفيين

محمود عبد اللطيف بطروخة

وكالة سفنكس للفنون والآداب

مُقَدِّمة

قضية فكرية للعرض على العقلاء والمفكرين في مباحث تعتمد على أسس المعارف وتدور في فلك الحق.. غايتها الوقوف على مقومات وتصحيح للغة والفهم والسلوك.. والنظر إلى الدين في نظرياته لا التغني والبكاء على أطلال تطبيقاته!

شأنها كشأن كل قضية قابلة للنقد والاستئناف المنطقي من علماء الفهوم بل وعلماء الرسوم!

هي إطلالة على فكر الشيخ بن عربي المحجوب عن دائرة الضوء لاحتجاب العقول عن علومه وفهومه.. وقد أثرى التراث الإسلامي بفنارات أنوار من علوم لا يدرك كنهها إلا من ينشد الضياء.

ومن العجب أن عادت الشيخ الأكبر أجيال جاءت بعده جهلوا عباراته.. ولم يبلغوا شأوا في إدراك إشاراته.. فما جمعوا له عبارة! فما بالهم يسفهون مقاله؟!

أما بشأن قضايا فكري عبد الحق.. ومن فكري عبد الحق هذا؟! ومن عبد السميع عقيل؟! ومن شاهد العارف؟! هم الذين قصدت منهم أن يكونوا أساس المحاورة لمضمون القضية.. فلن يجد القارئ جهداً في إدراك أن كل صاحب فكر ينشد الحق هو (فكري عبد الحق) وإن كان الحق- أعني أكثره- غير مدرك في أفهامنا بل ويا للأسف قد يكون مغلوطاً أو مخلوطاً بأضغاث الوساوس- التي تورثها الذنوب في سلوكياتنا فتصبح الحقائق عنا غائبة مرتين! بحجاب عدم الإدراك وحجاب الخلط والتشويش

ولكي نجليها في مداركنا فلابد من إزلة رءاسب الجمود التي تبدو في مسمى (عقيل) السامع إلى صوت عقله!..

فهو (عبد السميع عقيل) فإن جليت بضياء فكر تثمر عقلاً يدرك به أن الأمر يتجاوز عقاله! فيصاحب المعارف لتكون شاهدة يسكن إليها في حيرته، وقد تزيده حيرة! ولكنها آنذاك تكون حيرة العالم!.. وهذا هو (شاهد العارف).

أما القضايا المطروحة فبكل واقعية لا خفاء فيها هي كشف لسطحية فهوم علماء الرسوم! فالقضايا المعروضة فيها دعوة صارخة تبكينا على حالنا كمسلمين نظن بأنفسنا أننا محمديون، أما واقعنا فكشأن الأعرابي الذي ينشد الإمساك للصوم يتبينه من خيطين.

أما ما أعنيه بعلماء الرسوم، فهم أهل الجمود المادي الواقفون مع ظواهر النصوص وليس لهم قدوم ولا مسلك في علويات الفهوم، هم الذين انشغلوا بظواهر الطاعات المتجردة عن روح الحضور فيها، فلا صلاة لهم!.. وبحرفية الكلمات دون النظر لمدلول الكلام فلا علم لهم إلا رسم لنصوص محفوظة مضيعة بفهوم سطحية أو مغلوطة!

وهي دعوة تدعونا أن يصلح الكل من لبناته، فيكون تربة زكية مسخرة لمهدي منتظر يرمم صرح الإسلام المحمدي الذي عملت فيه معاول المسلمين وأعداء المسلمين!

محمود عبد اللطيف بطروخة

قضية

فكري عبد الحق

فكري عبد الحق رجل مثير.. تحتار في أمره، أجدني متردداً بين اتفاق معه ومسالمة.. وبين جموح عنه ومعاندة ولكنه مع ذلك جدير بالاحترام، فهو صاحب منطق معقول يحاصرك بحديثه حتى الاحتواء!

قال عنه الشيخ شاهد العارف:

– هذا الرجل من عالم البرزخ!

– يعني إيه يا شيخ عارف، تريد أن تقول أنه قادم من الآخرة إلى عالم الدنيا؟!

– أو قل أنه عايش في الدنيا ومتحقق بالآخرة.

كان لقائي به في رحلة بحرية للحج، ومعي الشيخ شاهد العارف، صديق أثق في دينه وخلقه، لا أحس معه بكلفة رغم أنه نيف على الأربعين سنة، بينما لم أبلغ الثلاثين بعد.. فهو حلو المعشر.. قليل الكلام.. يتعبني فقط بشعره وألغاز.. ولا يفك رموزها إلا بعد إلحاح.. شاركني في الحج في نفس الفوج، نصبته أميراً على فأشار أن نحج بالبحر.. وقال أنها فرصة لدراسة المناسك في صفاء قبل الوصول إلى الأرض الحرام.

صعدنا إلى سطح السفينة نستنشق الهواء الطلق.. هرباً من جو الكبائن القديم على حد تعبير الشيخ عارف، وجدناه جالساً على مقعد يتوسط ثلاثة مقاعد في شكل نصف دائري بمؤخرة السفينة.. ألقينا عليه التحية وهممنا بالجلوس، فأثر التخلي عن مقعده في أدب ليجلس الشيخ العارف بجواري، إلا أن الشيخ أقسم عليه أن يبقى كما هو قائلاً:– نأمل ألا نكون قد قطعنا عليك تأملك ولكنها

فرصة لصحبة في الله.. أخوك شاهد العارف.. وبدوري قدمت له نفسي: وأخوك عبد السميع عقيل من قنا إن شاء الله.

مد يده مصافحاً الشيخ عارف:

– وأخوك فكري، وصافحني مستكملاً وهو يضحك: عبد الحق!

أثارني ضحكه فهو يبدو رجلاً وقوراً، في عقده الخامس من العمر، نظرت إليه أفتش عما أضحكه.

فبادرني: حضرتك مصري من الطراز العصري!!

– يعني إيه يا أستاذ.. فكري؟!

– ما أقصده هو لغتك العصرية..قلت: من قنا إن شاء الله، وعبارة "إن شاء الله" عبارة أصبحت عصرية يكثر ذكرها على لسان الناس.. العامي منهم والعالم حتى خطباء المساجد وأساتذة الجامعات!!.

كان رده بالنسبة لي كالصاعقة فلهجته فيها تهكم ظاهر.. تلعثم لساني وأنا انظر إلى الشيخ عارف عساه أن يرد على كلامه أو يعلق، ولكن الشيخ لم يبدو عليه أي انفعال سوى نظرة اهتمام مُصغية!. تمالكت نفسي حتى لا تبدو في نبراتي أي بادرة غضب وعاودت استيضاح كلامه.

– يعني إيه يا أستاذ حضرتك معترض على عبارة إن شاء الله؟!

– لا.. معترض فقط على موضعها في الكلام، ومعترض على الإسراف في استخدامها اللغوي وحضرتك عرفتني بمنشأك قلت: من قنا إن شاء الله، كان يكفي أن تقول من قنا ولا تزيد.

– وأي إساءة في عبارة إن شاء الله.

– يا أخي.. قلت اسمك عبد السميع عقيل؟!

– نعم!

– أذن فاسمع كلامي واعقله.. الإساءة ليست في العبارة بل في موضعها، بالضبط مثل الذي يذبح دجاجه أو بقرة، فيستفتح بـ بسم الله الرحمن الرحيم.. هل يصح ذلك؟!

– ولم لا؟! بسم الله الرحمن الرحيم عبارة عظيمة، بل آية نقولها في كل وقت وكل مقام.

تدخل الشيخ العارف وكأنه متفق مع السيد فكري:

– قول بسم الله الرحمن الرحيم عن الذبح يبطل الذبح! حيث ذكرنا الله بالاسم الرحيم الذي يقتضي الرحمة بالحيوان، ولكن يقال عند الذبح: بسم الله.. الله أكبر فكرى:

– هو ما قاله الشيخ العارف.. وكذا عبارة إن شاء الله، تقال لشيء تنوي فعله أجلاً ولكن لا تقال لشيء ماض أو حادث بالفعل أليس كذلك يا أستاذ عقيل؟

– نعم.

– لعلك تقصد تقول بلى.. بدلاً من نعم! لأني سألتك باستفهام نفي (أليس) فإن اتفقت معي تكون إجابتك بلى، وإن اختلفت تكون إجابتك: لا.. أما الإجابة بنعم أو لا فتكون في الاستفهام المثبت.. هل أنت ذاهب للحج؟

– نعم.. وأنت ألست ذاهباً للحج؟!

– بلى!

سأله الشيخ العارف: هل أنت مدرس للغة العربية؟

أجاب فكري: لا.. ولكني عربي اللسان، يحضرني دائماً الحديث الشريف:

"تعلموا العربية وعلموها للناس".

كانت السفينة تسير بسرعة لا نكاد نحسها إلا من لُجي الأمواج المتدافعة من ماكيناتها، وكان منظر البحر ونحن في مجاهله حيث لا شاطئ يرى، يورث

إحساساً متناقضاً بين صفاء النفس، ووحشة الاغترٰب عن اليابسة.. طالعت السماء البعيدة عن التلوث المدني وإلى الغمام وهو يتجمع من أبخرة تراها العين حين ينفذ من خلالها ضوء الشمس، فتقوم بتكسير، فيبدو ضياء.. ويبدو الغمام وكأنه ينشد السمُو والارتقاء ليلاقى مثيله فيعانقه في رفق حتى يتداخل فيه.. لوحة فنان مُبدع تنبض بالحركة والخلق الجديد، تتغير ملامحها كل آن، فالسحب بألوانها المتباينة من انكسار ضوء الشمس تشد البصر فترٰها رسوماً سريالية تبحث عمن يفك رموزها وطلاسمها!

قطع فكري عبد الحق تأملاتي لاستمع إلى صوته الأجش ونبراته التي تبدو ساخرة، موجها حديثة للشيخ العارف:

– القرآن العزيز نزل بلسان عربي مبين، ورغم ذلك البيان إلا أن العربية تحتضر على ألسن العرب!

أومأ إليه الشيخ العارف موافقاً وهو ينشد:

واليـــوم أصـــبحنا بحـــال طفولـــة

في العلـــــم تلتمســـــانه تطفـــــيلا

مـــن مشـــرق الأرض الشـــموس تظـــاهرت

مـــا بـــال مغربهـــا عليـــه أديـــلا

تدخلت في الحديث معترضاً على السيد فكري:

– عندنا تب التفاسير!

التفت إلى السيد فكري وكأني فريسة أوقعها في شباكه قائلاً:

– إذن قل لي ما معنى قول الله تعالى: " أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"

أجبته بثقة:

– يدعونا الله أن ننظر إلى الإبل، كيف هيئتها وقوامها، كيف صبرها على الجوع والعطش أياماً ذات عدد، كيف وهي في تجمعها رغم قوتها وعِظَم خلقها وقدرتها يمكن لصبي صغير أن يقودها ويسوسها فتطيعه.

فكري:

– كلامك صحيح ولكنك لم تجب على تساؤلي!.. فالتساؤل القرآني في دعوة الإنسان للنظر إلى الإبل هو تساؤل عن كيفية الخلق (كيف خلقت؟)، ولم يقل أفلا يتفكرون أو أفلا يعقلون، بل دعانا لننظر بحاسة البصر كيف تخلق الإبل!.. أما إجابتك فتكون صحيحة إذا كان السؤال: كيف هي؟.. أما كيف خلقت فأرني كيف تنظر إلى خلق الإبل؟!

صَمَتُّ برهة ثم قلت له:

– أحتاج مراجعة كتب التفاسير..

قاطعني قائلاً:

– ستجدها مثلما قلت ولكن دع عنك كتب التفاسير، فما هي إلا مفهوم زيد أو عمرو، وارجع إلى قاموس اللغة، ستجد في قاموس "لسان العرب" كلمة (السحب) أحد معاني كلمة الإبل وهذا المعنى مشهور ومنظور عند سكان البدو من العرب، ولكنه مجهول في لساننا، فنحن نرى المعنى القريب للساننا هو الأولى بالفهم، ونسينا أن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين، وأنه نزل على سبعة أحرف، أي سبعة ألسن من ألسنة العرب، وما اختلف فيه فيرجع للسان قريش.. وقد كنت الآن يا أستاذ عقيل تنظر إلى السحاب ورأيت كيف يُخلق!..

يا عجبا كيف يدرك القرآن من لم يدرك لسان العرب؟!

هز الشيخ العارف رأسه منشداً في شجن:

ولســـت أبـــالي أن يقـــال محمـــد أُبـــل

أم اكتظـــــــت عليـــــــه المـــــــآثم

لكنـــــــه ديـــــــن أردت صـــــــلاحه

أحـــــاذر أن تقضـــــي عليـــــه العمـــــائم

للحق رغم ارتياب لا أجد له سببا نحو السيد فكري، إلا أنني وجدت في نفسي إعجاباً بحديثه، وتمنيت أن أقف على علومه في مناسك الحج ليفك لي رموزاً ويحل لي ألغازاً عنها، قلت له:

– هل تقبل مصاحبتي لك يا أستاذ فكري؟!

– ومالك بصحبتي يا أستاذ عقل؟!

ضايقني أن يخطئ في اسمي:

– اسمي عقيل.

– العقل في لسان العرب هو القيد والتحديد، من العقال.. وعقيل تصغير عقل فهو زيادة في الحصر والحد.. تصاحبني وأنت عقيل محال!.. أما وأنت عقل فلن تستطيع معي صبراً!

– إن شاء الله سأصبر، ولا مانع أن أكون (عقلاً) وأسألك الرفق بي!

– لك أن تصاحبني على شرطك حيثما وجدتني!.. وأظنك ستبدأ بزيارة مكة المكرمة.. أما أنا ففوجي إلى مدينة الرسول.

؟؟؟؟؟؟؟ الشيخ العارف:

يا عشاق النبي صلّوا على جماله

؟؟؟؟؟؟ فكري:

ويُسأل في الحوادث ذو صواب

فهل ترك الجمال له صواباً؟!

قلت مشاركاً ومجارياً:

– اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

نظر إلى السيد فكري قائلاً بنبرة لا تخلو من حدة:

– لا تزد من عندك!

– لا أفهم ما تقصد!

– صليت على النبي وجمعت معه الآل والصحابة.. والصحيح جمع الآل فحسب!

– وماذا في الصلاة على الصحابة..؟! هل أنت شيعي يا أستاذ فكري؟!

– لا شيعي ولا سلفي، أنا محمدي.. كن مع النبي حيثما قال.. حين سأله الصحابة عن قوله تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً" قالوا كيف نصلي عليك يا رسول الله.. فبماذا أجابهم.. يا مولانا؟!

– قال عليه السلام: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

– أبوك مرحوم!.. قل لي أين موطن ذكر الصحابة هنا؟

– لم يذكرهم الرسول.

– لو كان ذكرهم ضرورة أو واجباً لما فات النبي المعصوم!

– أذن فمن أين تواتر ذكر الصحابة على ألسن الخطباء حين يصلون على النبي فوق المنابر؟!

– تواتر من السياسة!.. منذ أيام الفتنة الكبرى ليعالج بها أنصار معاوية غلبة كفة على، فهو أحد أعمدة آل محمد، فإذا ذكرنا الصحابة مع الآل اعتدلت كفة معاوية فهو صحابي وكاتب الرسول.. هذا إذا غضضنا البصر عن كونه من الطلقاء!

– وما الضير من ذكر الصحابة في صيغة الصلاة على النبي؟! أليس الأصحاب رضوان الله عليهم هم من قامت بهم قائمة الإسلام حيث باعوا أنفسهم وأموالهم ولم يبغوا إلا وجه الله؟!

– بلى!.. ولكن ما الضير لو قبلت أحجار الكعبة المعظمة كلها؟ أقول لك!.. أولاً لم تؤمر بتقبيلها والإتباع أولى من الاجتهاد؟! ثانياً أي فضل وأي تميز سيكون للحجر الأسود وأنت تقبل معه سائر الأحجار؟! فالضير الذي يقع على الحجر الأسود هو الفقد للتميز الذي انفرد به وكذا الأمر في إضافة الصحابة مع الآل، فالأصحاب والأتباع هم صرح البناء وجدرانه، أما الآل فهم ركن الحجر الذي نبدأ به مستلمين.. أما خطباؤنا الذين يصلون على الأصحاب من فوق المنابر، فقد سبوا الآل ولعنوهم من قبل وأيضاً من فوق المنابر!!

الشيخ العارف:– صدقت– ثم ضاحكاً– هؤلاء يا أستاذ يصلح أن نقول عنهم علماء إن شاء الله!

قلت للسيد فكري:

– ولكن النبي عليه وآله السلام قال "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"

– نحن لا نقدح في مكانة الصحابة.. ولكن لابد أولاً أن تعرف من هم الصحابة

– أعني تعريف الصحابي.. وأن تعرف بمن تقتدي به وفيما تقتدي عنه.. هل لك أن تقتدي بعبد الله بن أبي، صاحب مقولة: " لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ).

– أعوذ بالله!

– قد سماه النبي صحابي حين أجاب عمر بن الخطاب وهو يسأله قتله "أتحب أن يقال أن محمداً يقتل أصحابه"؟!

– وهل تملك أن نقيم الصحابة؟

– لا نقيم موازين للمفاضلة.. ولكن يؤخذ عنهم ما عُرف من خلق وسلوك وعلم

– اقتدى بتسليم وتصديق أبي بكر.. وبصبر بلال، وببذل عبد الرحمن بن عوف، وهكذا أما عن تقييم الصحابة فلا تملك إلا إتباع من خصهم النبي الأعظم بوصف، فإن قال عليه السلام: "أنا مدينة العلم وعلي بابها" لا نذهب إلى زيد لننهل العلم منه، بل إلى علي نفسه أو إلى عمرو الآخذ عن عليّ.

قطع حديث السيد فكري صوت المكبر ينقل آذان الظهر، نزلنا إلى داخل السفينة للوضوء والصلاة وبعد الإقامة وقف الإمام يشرح للمأمومين كيفية القصر للصلاة: كل واحد يقول نويت أصلي الظهر ركعتين قصراً، وكل واحد يا إخوانا يضع حذاءه أمامه.. لأن في أخ سُرق حذاءه في صلاة الفجر!.. الله أكبر!

كان السيد فكري يقف في جواري في الصف ولكنه غادر المصلى قبل الشروع في الصلاة، لم أجد تفسيراً لسلوكه.

وبعد الصلاة سألت الشيخ العارف:

– لِمَ ترك السيد فكري المصلى؟!

فأجابني بإجابة لم أستوعبها قال:- لم يجد قلبه!

فعاودت استيضاحه: ولم لم يجد قلبه؟!

فأجابني العارف بضيق: شتته له الإمام! والمصلين!!.. وكيف تصلي دون قلبك؟!

- ولكنك صليت يا شيخ عارف؟!

- صليت لأكون شاهد!.. ولكني ما أقمت صلاة!

التقيت بالسيد فكري ثانية به في كافتيريا السفينة يحتسي فنجاناً من القهوة بعد الغروب، شاركته مجلسه دعاني لفنجان من الشاي.. مر وقت دون حديث يذكر.

زفر السيد فكري عبد الحق قائلاً: يا أخي الإسلام أصبح في واد والمسلمون في واد آخر!!

قدم علينا الشيخ العارف مستمعاً إلى قول السيد فكري ومعلقاً:

شعوبك في شرق البلاد وغربها

كأصحاب كهف في عميق سبات!

فكري عبد الحق مستكملاً:

- حين يُنادى بإقامة الصلاة، فأنت مدعو للوقوف بين يدى ربك فالواجب أن تهب واقفاً لتترص مع إخوانك مسارعاً استجابة لقول الله " وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ

مّن رَّبِّكُمْ".. لا أن تظل جالساً لتقوم بعد الفراغ من الآذان.. أما الإمام يا أستاذ عقيل فقد وقف بعد الإقامة ليشرح للمصلين كيفية الصلاة!.. من الذي ندبه للشرح والدرس؟!.. وإن كان درسه عن ضرورة فليكن قبل الإقامة.. ثم يعلم الناس أن يقولوا (نويت أصلى)!! النية ليست قولاً يقال، بل النية هي توجه قلب.. هب أنا سألناه لمن يقول نويت صلاة كذا ألنفسه؟! أم إلى ربه؟! أم إلى من جاوره؟!!.. التلفظ بالنية إن جازت فهي تجوز للموسوس لا للمتيقن!.. ثم بعد ذلك يوصى المصلين بمراعاة أحذيتهم مخافة أن تسرق!! كيف يجد قلبه بين يدي ربه وعينه ولبه على حذائه؟!.. صل يا أستاذ عقيل وراء البار والفاجر! فلعله تاب وصلح أمره.. أما الجاهل فلماذا نقدمه للإمامه وقد أفصح عن جهله؟!

جاءنا صوت المكبر يدعو الأفواج الذاهبة إلى مكة للإحرام.. ذهبنا للإحرام.

قلت للشيخ العارف: لماذا يبدأ السيد فكري بزيارة المدينة قبل مكة.. أجابني بطريقته وما يعتريها من ألغاز: سورة الحج فيها سجدتان، السجدة الأولى يناسبها مكة والثانية يناسبها المدينة، وهو يريد تسجيل نفسه في الثانية!.. لم أفهم ما يقصده الشيخ العارف.. عايشت أجواء مكة وعبقها وأنا أصلي ركعتي الإحرام.. فجهرت بالتلبية:

لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك.

مكة!.. شرّفك الله.. يا حرم الله.. يا مركز الكون.. يا صبا محمد وعرسه.. يا مولد الزهراء يا ذكرى الخليل.. يا فداء الذبيح.. يا نداء جبريل

– يا قرة عين الرسول.. يا محل الإيمان.. يا راجمة إبليس وداحضة الباطل.

– يا خير أرض الله يا أحب أرض الله إلى رسول الله.. يا من لا يخبط شوكها

– أنت مطالب بالإقتداء بالنبي الأعظم، وهو عليه السلام قد اقتدى بهدي الملائكة حيث سجد سجدة الأعراف "إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ".. فالآية القرآنية خبرية عن سجود الملأ الأعلى وهم الملائكة، وليس في الآية أمر بالسجود، بل مجرد خبر عن هدى الملائكة.. فحين أوقعها النبي عليه السلام سجدة علمنا أنها سجدة اقتداء " أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فطوافك حول البيت الأرضي يناسب في جماديته الأجساد.. وطوافك حول البيت المعمور يناسب في علوياته الأرواح، وهو مقام قال فيه النبي (ص)– حين سأل الصحابي حارثه عن حقيقة إيمانه– عرفت فألزم!.

؟؟؟؟؟؟ قوله:

– الحج حجان!

استمر السيد فكري في حديثه:

– الحج هو الآخرة بمنظور الدنيا.. تأمل في سورة الحج.. مفاتيح السورة آيات خبرية عن الآخرة: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) فما في اليوم الآخر من بعث ونشور وهول وفزع وذهول ودهش وحيرة ؟؟؟؟؟؟ وحساب وعتاب وشهادة وتبرأ فريق من فريق ودعوة الخلق للسجود فيسجد الكل إلا طائفة لا تستطيع السجود، وفريق في الجنة وفريق في النار وذبح للموت في صورة كبش، كل ذلك من مرائي الآخرة نجده في نسك الحج مع فارق أن الآخرة أعظم.. فكما قلنا الحج منظور أخروي من عالم الدنيا.

– فما الذي يعنيه الوقوف بعرفات؟

– عرفه بقعة من الأرض غير مألوفة ولا مأهولة.. يقابلها في الآخرة أرض ؟؟؟؟؟ "يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمَوَاتُ".

– ؟؟؟؟؟؟ عرفة الآن أرض مشجرة ومظللة.. فكيف تقول بأنها غير مأهولة؟!

– ومن الذي أفتى بزراعتها؟!.. أقول لك!.. علماء الرسوم يا أستاذ عقيل! اجتهدوا في رفع المشقة عن الحجيج.. وظنوا أنهم يحسنون صنعا، بل غاب عنهم أن المشقة في الحج أمر مقصود!.. لذلك حدد الشارع للحج الاستطاعة وسماه جهاداً.

– هل تعني أن تشجير عرفة خطأ؟

– أن تأملنا المقصد من جمع الحجيج بعرفة، سنجد أن تشجيرها خلاف الأولى.. ثم أن المشرع لم يوص بتشجيرها، ويكفي أن نقول إن الإتباع أولى من الاجتهاد.

– والسعي بين الصفا والمروة وما المقصد من التشبه بالسيدة هاجر؟!

– هاجر كان شأنها الحيرة في سعيها، فهي في المناسك كحيرة الآخرة والبحث عن مخرج.. ومشقة الحج تمثل هول وعذاب الآخرة ويتذوقه الحجيج في طواف الإفاضة، فالكل في حال سُكر من مشقة الحج "وما هم بسكارى".. ورجم الشيطان في النسك يقابله تبرؤهم منه في الآخرة.. والمبيت بمنى يقابله انتظار الخلائق يوم الفصل بينهم.. وفي حجه الوداع رفعت امرأة للرسول طفلاً رضيعاً.. قالت: أعلى هذا حج؟! قال: نعم! ولك أجر.. مع علمنا أن الطفل لا حج تكليفياً عليه، ولكن لما كان مقص الحج معايشة مناخ الآخرة كان على الطفل حج.. فمعلوم أن الآخرة يحشر فيها الخلق أجمعين كبيرهم وطفلهم حتى الوحش والطير، واليوم الآخر ليس فيه صيد أو فسق ويُبعث الناس عرايا. كل ذلك في الحج من تحريم صيد وكشف بدن بلا رفث ولا فسوق ولا تعطر ولا تطيب ولا حلق ولا جدال.. كل ذلك لمناسبة الآخرة.

– وما الفضل إذا صادف يوم عرفة يوم جمعة؟!

– لكونه أقرب مثالاً ليوم الحشر، فمعلوم أن يوم الحشر يكون يوم جمعة، وفي خطبة الوداع" أن الزمان استدار كيوم خلق آدم".. وكان يوم جمعة.

– واختصاص سورة الحج بسجدتين في آياتها؟!

– سجدات التلاوة خمس عشرة سجدة متفرقة في أربع عشرة ومائة سورة.. فاختصاص سورة الحج بسجدتين إشارة إلى تعظيمها وبيان سجود الآخرة.. فالسجدة الأولى يسجد فيها من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب، وهم الذين قيل في حقهم في سجود الآخرة " ويُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ".. أما السجدة الثانية فهي سجود خاص فالأولى للناس والثانية للمؤمنين فهي خاصة بالأمة المحمدية كخصوصها في الآخرة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

– لم أر الحج من قبل بهذا المنظور!

أقدم الشيخ العارف منشداً:

ولقد تجلى للذي قد جاء في طلب القبس
فرآه ناراً وهو نور في الملوك وفي العسس
فإذا فهمت مقالتي فاعلم بأنك مقتبس
لو كان يطلب غير ذا لرآه فيه وما نكس

قلت:– ها أنت عدت إلى الألغاز يا شيخ عارف.. ماذا في بطن الشاعر يا أستاذ فكري؟!

– طالب القبس هو موسى عليه السلام.. والمعنى أن ربه أتاه في صورة مطلبه حيث كان مطلبه النار، لهذا قال في موضع آخر:

كنار موسى رآها في عين حاجته

وهو الإله ولكن ليس يدريه

– من صاحب هذا الشعر؟!

– هي أقوال الشيخ الأكبر!

– ومن الشيخ الأكبر؟!.. شيوخنا كلهم كبار!!

– ويحك!! هو الأكبر فعلاً وعقداً.. هو محيي الدين! هو بن عربي.. هو لسان العرب الحي إذ هم نيام!

– تراني كدت أنسى أن أسألك أأحلق شعري أم أقصر؟!

– نفعل أحد الأمرين!

– أقصد أي فضل يرجح أحد الأمرين على الأخر؟ وقد قال النبي عليه السلام غفر الله للمحلقين فقالوا: والمقصرين يا رسول الله؟.. فأعاد النبي قوله: غفر الله للمحلقين.. فأعادوا استفهامهم: والمقصرين يا رسول الله؟.. فقال عليه السلام: والمقصرين.

ابتسم السيد فكري وهو يقول:

– لم يقل النبي ذلك من باب التفضيل! تعالى نرى معاً متى نحلق أو نقصر؟

أليس بعد الإفاضة من عرفات ورمي جمرة العقبة؟

– بلى!

– نكون في هذا المقام قد نظر إلينا الحق تعالى وقال لملائكته "اشهدوا أني قد غفرت لهم" أي سترت عنهم ذنوبهم وسابق ما ساء من عملهم.. فغفر معناها اللغوي ستر.. فنأتي للتحلل من إحرامنا بالحلق أو التقصير، فيقول لنا النبي الأكرم: غفر الله للمحلقين، فهي ليست دعوة مغفرة ذنوب، فتوا قد غفر الله للحجيج قبل الحلق فأي مغفرة يقصدها الرسول؟!.. قلنا غفر بمعنى ستر، فلما كان شعر الإنسان هو تاجه ومظهر وجاهته وجماله ففي الحلق إنقاص لتلك الوجاهة وذاك الجمال.. فغفر هنا ليست للذنوب، بل هي دعوة أن يستر الله مظهر الخالق، فيبدله بنوانية تعوض ما نقص منه من مظهر أما المقصر فليس فيه نقص يذكر من مظهر جماله.. فلما لم يفهم الناس مقصد رسول الله، كرر سابق قوله، فلما كرر الناس تساؤلهم.. قال عليه السلام: والمقصرين!.. ولأن الحج ليس مقاماً للتعليم والشرح، حيث قال عليه السلام: "خذوا عني مناسككم".. فكان دائم قوله عليه السلام لمن يأتيه سائلاً: افعل ولا حرج! لهذا لم يصرح النبي بما يعنيه من قول "غفر الله للمحلقين" ولكن هكذا يفهم من يتذوق العربية ودربها.

وصلنا لميناء جدة فودعنا السيد فكري على موعد بلقاء.

سألته عند الوداع:

– بماذا توصني؟!

– إذا رجعت كيوم ولدتك أمك..فحافظ على أدنى درجات الإيمان!

– هي إماطة الأذى عن الطريق.

– نعم.. تلك أدنى درجات الإيمان.. لعلك معي أن أكثرنا لم يصل بعد إلى تلك الدرجة!

– تصور أني بافكر ارفع قضية على المسلمين!!

علق على قولي الشيخ شاهد العارف ضاحكاً:

– بتفكر إذن فأنت فكري..! وإن ابتغيت الحقيقة فأنت عبد الحق!

نظر لي السيد فكري بحسم:

– لعلك تقصد قضية يكون المدعى فيها الإسلام، والخصوم علماء الرسوم!

الشيخ شاهد العارف ملتفاً إلى:

– وسأكون على الحكم شاهدا!

محاكمة فرعون

بعد العودة من رحلة الحج أصبحت مداوماً على مجلس الشيخ شاهد العارف عقب صلاة العشاء من كل ليلة خميس، وجدت تغيراً حقيقياً في نفسي، ولاحظ ذلك الشيخ العارف حين بادرني قائلاً:

– ما بك يا عقيل؟! أصبحت أراك شارد الفكر كثير الصمت، قليل الكلام، هل أصبحت من أصحاب الأحوال؟!

لا أدري لماذا حاولت الهروب من التعليق على تساؤله فأجبته بدبلوماسية: هل قرأت الصحف اليوم؟!

أجابني مبتسماً مداراً هروبي من التعليق: لا يا حاج عقيل، هل من أخبار؟!

– فكري عبد الحق!..

قاطعني الشيخ العارف منزعجاً:

– هل حدث له مكروه؟! صفحة حوادث، أم صفحة مجتمع؟!

– الاثنان!.. قرأت خبراً غريباً، فكري عبد الحق يريد محاكمة فرعون؟!..

تقدم بطلب لدار القضاء!

اتسعت عينا الشيخ العارف وبدت عليه آيات الدهشة:

– فرعون موسى؟! دار القضاء؟!.. فكري عبد الحق؟!.. محاكمة ؟! لا أفهم؟!

– هو ما قلته لك، خبر صغير قرأته في جريدة الأهرام اليوم: عنوان بعلامة تعجب! "محاكمة فرعون!" والخبر: توجه رجل إلى دار القضاء مطالباً بمحاكمة فرعون، يدعي فكري عبد الحق!

صمت الشيخ العارف ثم بدا وكأنه يحادث نفسه بصوت مرتفع:

– لو أخذت المحكمة الأمر مآخذ جد، فسيكون هناك: متهم.. ونيابة.. ودفاع!

– المتهم معروف، والنيابة لن تجد جهداً والكل يصلح أن يكون ممثلاً للنيابة، ولكن من سيقبل الدفاع عن فرعون؟!.. فرعون.. طالما كنت أردد أن فرعون فاق إبليس سوءاً لعنهما الله!!

– لا تلعنه! حسبك إبليس!

– عجيب أمرك يا شيخ عارف! لم يحد الحج من ألغازك!، كأني بك إن جادلتك ستقول لي: دعنا نرى حكم القضاء في القضية، فيلكن ذلك!

تقدم "فكري عبد الحق" بطلب كان حديث الناس.. حيث توجه إلى دار القضاء مطالباً بمحاكمة فرعون!.. سئل عن دوافعه لذلك، فكانت أسبابه: أن فرعون– أيا كان من شأنه وأمره– هو واحد من آبائه وأجداده، بحكم أنه مصري، هذا من ناحية، وبحكم أن فرعون كان قد أعلن إسلامه بنص قرآني، وإن كان أكثر الناس قد ذهبوا إلى أن هذا الإيمان لم يُقبل منه!.. إلا أن السيد "فكري عبد الحق" كان مرتاباً، بشأن أمر قبول الإيمان أو رفضه، متردداً بين هذا وذاك.. فرأى أنه من العدل محاكمة فرعون لإدانته أو لإنصافه، فيكون الحسم القضائي هو الفيصل لإزالة ما يعايشه من ريبة.

كان لطلب "فكري" ردود فعل متناقضة: بين من يظن أن الأمر نكتة! وبين من يطعن "فكري" في سلامة قواه العقلية، وبين مؤيد ومستنكر في آن واحد!.ز ومن يتهم "فكري" بأنه مأجور من جهات ومنظمات معادية!.. وبين قائل: زمن العجائب.. ومن يقول: هذه بدعة وأية بدعة؟!.. إلا أن المحكمة أخذت الأمر مأخذ الجد، بعد انتشار الخبر في وسائل الإعلام المختلفة، وكثرة الدفوع والردود بين رجال الدين والإفتاء وبين رجال العلم الذين تمكنوا- منذ سنوات قلائل- من اختراع "آلة زمن" التي تسمح باستدعاء فرعون، وأبيه إذا لزم الأمر ليحادثوه ويحادثهم!.

قامت المحكمة بتحديد جلسة لنظر القضية، وتمت مخاطبة الجهات والأفراد الذين يعنيهم الأمر، فقامت النيابة بتجهيز أوراقها ومستنداتها، مدعمة بآراء رجال الدين والفتوى.. ويوم الجلسة تم استدعاء "فرعون" الذي حضر في ثياب مصرية قديمة، ورفض الملابس العصرية!

كانت ملامحه مزيجاً من الغضب والتبسم!.. وتم إيداعه أحد مخافر الشرطة، وسط حراسة مشددة، أشرف عليها السيد وزير الداخلية بنفسه!.

تم إبلاغ "فرعون"- حسب طلب المحكمة- بحقه في طاقم للدفاع عنه.

فأجاب مقتضباً:

- يكفي واحد فقط، ليس من معاصري زمانكم، وبإمكانكم استدعاؤه كما استدعيتموني!

؟؟؟؟؟؟ عن شخص الدفاع؟

فأجاب: السيد "بن عربي" الملقب بالشيخ الأكبر.

تم تشغيل آلة الزمن لاستدعاء الدفاع، فحضر شيخ وقور ملامحه بين الجد الصارم والسماحة!

وعند انتصاف النهار كان كل شيء مهيأ في القاعة، ورغم الحشد الإعلامي والجماهيري الشديد إلا أنه أمكن السيطرة على النظام..

وساد قاعة المحكمة صمت جليل حين أعلن الحاجب "بصوت جهوري:

- محكمة!

دخل القاضي ومعه مستشاروه، وأعلن افتتاح الجلسة.. فأخذ كل مكانه في ترقب وحذر.. سأل القاضي عن المتهم.

فأجاب "فرعون" بعبوس يعلن عن وجوده.

نظر القاضي إلى الحرس: أدخلوه قفص الاتهام.

فرعون "معترضاً": كيف يحاكم المرء مرتين؟!

القاضي: وهل سبق الحكم في قضيتك؟! (ثم مستكملاً) عموماً أنت الآن متهم، وفي نظر العدالة بريئ حتى تدان.. ولك أن تطلب تعويضاً لرد اعتبارك، هذا في حالة حصولك على البراءة.

فرعون "مستسلماً": أمري لله.. لله الأمر من قبل ومن بعد.

النيابة: أرجو ألا يؤثر على عدالة المحكمة، ظاهر خداع هذا الفرعون، وادعاؤه المسكنة!

القاضي: الدفاع؟

الدفاع: أبو بكر بن محمد الحاتمي الطائي نسباً.. دفين دمشق، المعروف باسم "ابن عربي".. حاضر عن المتهم.

القاضي: النيابة تتفضل.

النيابة: سيدي الرئيس، سادتي المستشارين.. إن هذا المتهم الماثل أمامكم، قاتل مع سبق الإصرار والترصد.. قتل كثيراً من الأبناء، أزهق أرواحاً بريئة، وأنفساً ذكية طاهرة، لم تقترف جُرماً.. أفجع قلوب أمهاتها، واعتصر آلام آبائها- استحيى النساء، وجعلن سبايا وهن الحرائر.. استعبد أمة بأسرها، يعملون سُخراً بلا أجر، ومن يأبى! فلا يتورع عن قتله أو سحله وتعذيبه.. ولم يكلف بما فعله في بشر من غير أمته.. بل غرر بآله وشعبه، فاستخف بهم وأضلهم، وتعالى عليهم.. وتلك مقولته في مستند أصيل- بين أيديكم يا سيدي- مقولة صريحة، ادعى فيها الألوهية مستخفاً بعقائد البسطاء من الناس "أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى" هكذا قال، وما ناقل الكفر بكافر!..

جحد الهداية لإثنائه عن ظلمه وجبروته، ولرده إلى الحق فلم يرتدع، ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟، بل استهزأ بهم وعاداهم، وعاث في الأرض فساداً.

سيدي الرئيس، سادتي المستشارين.. إن هذا الفرعون ماكر خبيث مخادع، أعلن توبة وإسلاماً هما بريئان منه ومن نسبه إليهما.. فكانت توبته تمادياً في زيفه وتسويفه وتمادياً في استهزائه بالحق والهداية.. إن قلبه لا يعرف الرحمة، فكيف نرجو له رحمة؟!

سيدي الرئيس.. إن هذا الجمع الغفير من الناس يطالبون عدالتكم، بصك إدانة لا ينفصم عنه أبداً.. ولسان حالهم يقول: لا رحمنا الله إن رحمناه!.. فحتى لو غفرنا له ما اقترفه من فساد وطغيان، فكيف نغفر له تطاوله على رب العزة، وعلى الأنبياء المكرمين؟!. سيدي الرئيس.. أنا لنعجب كيف يطالبنا هذا الفرعون بالبراءة، وهو لم يعرف يوماً البراءة هاهو سجله بين أيديكم مستندات كلها تُدينه وكأني- يا سيدي- بالأرض تصرخ تحت قدميه قائلة: لا نجوت أن نجا!.. ألا إن لعنة الله على الظالمين.

(توجهت الأنظار إلى فرعون في قفص الاتهام، تستطلع أثر مرافعة النيابة على ملامحه، وسرت همهمات بين الجماهير، كل هامس للآخر.. أوقفتها طرقات القاضي وتحذيره: سكوت!)

القاضي: الدفاع يتفضل.

الدفاع: السيد الرئيس، السادة المستشارين.. إن الفيصل في الأمر مستندات تقرها النيابة وتعتمد عليها بل هي أساس الاتهام.. وهي أساسي أيضاً في الدفاع.. ولتسمح لي عدالة المحكمة بمحاورة النيابة.. فلعل ما قاله ممثل النيابة فيه بعض الصحة والصدق.. إلا أن ما تطالب به النيابة هو الأمر الغريب!.. فموكلي- يا سيادة الرئيس- كان حاكماً مؤيداً من شعبه وآله.. وكانوا مُحبين

له وعاشقين!.. إن الحاكم له سلطان على رعاياه يفعل بهم ولهم ما يراه، ؟؟؟؟؟؟ عند ربه.. إن أحسن فله الحسنى، وإن أساء فعليه الإساءة.. ؟؟؟؟؟؟؟؟، أداؤه قابل للصواب والخطأ.. ومن منا المعصوم- غير الأنبياء-؟ فلماذا نعجب إن وقع منه خطأ؟!.. إن للحاكم أن يؤاخذ أو يعفو عن أحد رعاياه إن أخطأ أو أفسد، حتى وإن قتل!.. وبين أيديكم- يا سيادة الرئيس- مستند عفو جماعي لأمة حاربوا نبياً وأتباعه، فكان قوله حين أمكنه الله ؟؟؟؟؟؟: اذهبوا فأنتم الطلقاء!.. كان فيهم الباغي والطاغي، والقاتل والمفسد، ؟؟؟؟؟ جميعاً العفو، هذا شأن الحاكم مع رعاياه.. ولكن من هو الحاكم على ؟؟؟؟؟؟ أليس هو رب العزة.. بما أنزله من شرع ووعد، مما دلتنا عليه الرسل؟.. فلماذا نُحجر رحمة الله عن موكلي إن كانت تسعه؟!

إن الرحمة قانون واجب عام عند رب العزة، لم يُوجبه أحد عليه، بل أوجبه على نفسه، بما نص عليه: "كتب ربكم على نفسه الرحمة".. فالرحمة لا ؟؟؟؟؟؟؟؟ موكلي فهو داخل في نص تقريري يقول: "وَرَحْمَتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" وموكلي لاشك شيء!.. بل هو إنسان، أكرم المخلوقات على ربها: "ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ".. وموكلي داخل في هذا التكريم.

النيابة: وكيف يكون الشأن إذن مع الكافرين؟!

الدفاع: لا أسمح لك بتكفير موكلي، وإلا عاد عليك ما ترميه به..! فموكلي لو كان كافراً لما بادر إلى الإيمان، وهو الذي أعلن بموجب مستندات فيها قوله ؟؟؟؟؟؟: "آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ".

النيابة: نلفت نظر عدالة المحكمة إلى أن ما قاله المتهم لم يكن إيماناً صريحاً، ؟؟؟؟؟؟ إيماناً بما آمنت به بنو إسرائيل، ولم يذكر كلمة التوحيد الصريحة، ولا حتى لفظ الجلالة!

الدفاع: هذه ملحوظة واهية!.. بل فات ممثل النيابة التخصيص المقصود، وكأنه يطعن في إيمان بني إسرائيل، أما التخصيص الذي حرص عليه موكلي، فكان مرادا به رفع الالتباس عن أي مفهوم سبق عنه من عقائد، فكان نصه صريح، غاية في الوضوح.. كما جاء في تخصيص السحرة بما نصه: "آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وهَارُونَ" ولم يقدح أحد في إيمانهم لهذا التخصيص.. فإسلام موكلي يا سيادة الرئيس صريح وتصحيح ونبذ لسابق أمره فلا يصح أن نفتح صفحة مساوئ لرجل أعلن إسلامه، فالإسلام يجُب ما قبله.

النيابة: كيف تقول إن هذا الفرعون لم يكفر وهو القائل " أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى"؟!

الدفاع: أخشى أن تفصح إجابتي عن جهل لغوي لممثل النيابة!.. فالرب في لغة المصريين معناه الملك أو الحاكم، كقول يوسف: ".. أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا" ولم يكن إدعاء أُلوهية كما يظن ممثل النيابة، فقول موكلي حقيقة لا كذب فيها فهو ربهم- حسب ما قدمنا- وهو الأعلى منصباً!.. وغاية الأمر: كبر واستعلاء من موكلي، وتمحو ذلك إسلامه الذي أعلنه ساعة الغرق.

النيابة: سيدي الرئيس.. إن التوبة باب مفتوح في حياة الإنسان ما لم يغرغر في سكرات الموت كما جاء في النصوص، وهذا الفرعون قد أدركه الغرق، فأعلن إيمانه مسرعاً طمعاً في النجاة ولكن سبق السيف العذل.. فباب لتوبة قد أغلق! "وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الماكِرِينَ".

الدفاع: سيادة الرئيس.. هذا استناد غريب ضعيف!.. فموكلي لو كان غرغر- على حد قول ممثل النيابة- لما تمكن من النطق، ولكنه قال، ولم يقل كلمة

بل عبارة! " آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" وليس هذا فحسب بل مكث حتى سمع عتاب الله له: "آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ".. وليس هذا فحسب.. بل مكث حتى سمع بشرى بالنجاة "فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً".. فأي غرغرة كانت.. وأي باب أغلق؟!

النيابة: وكيف تبرر انصرافه عن دعوة من أرادوا له الهداية وخاطبوه بالقول اللين اتقاء لشره وجبروته؟

الدفاع: سيادة الرئيس.. حتى لا يكون هناك لبس في فهم ممثل النيابة للنصوص المستند إليها.. القول اللين لم يكن لاتقاء شر، فلا يؤمر بلين المقال إلا من قوته أعظم من قوة من أرسل إليه، والنص في المستندات التي لا لبس فيها: "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا" فلو كان موكلي كافراً لما كان الشأن معه القول اللين.. فالإجراءات المتعارف عليها مع الكافرين الشدة والغلظة، "مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ" هذا نص، ونص آخر: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ".. ونص ثالث: "وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً".. ورابع.. "أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ".. فالقول اللين ينفي الكفر عن موكلي، وقد أثمر بوقوع الإيمان منه.

النيابة: إن الدفاع- يا سيدي الرئيس- يبتر النصوص "فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" فهل تذكر؟ وهل خشي؟.. كنا نود أن يفعل ولكنه لم يفعل! ؟؟؟؟؟؟ تاريخه ينفي أي تذكر أو خشيه.

الدفاع: لقد فاتت ممثل النيابة المعرفة اللغوية وأحكامها.. فمن المسلم به أن لعل وعسى في اللغة تفيد التمني والرجاء، إن كان القائل زيداً أو عمراً، أما إن كان القائل هو الرب الإله، فلا مقام للرجاء، بل للوجوب.. فلعل وعسى من الله

تفيد الوجوب، أي أنه سيتذكر وسيخشى، وطول الأمد في تحقيق هذا الوجوب جعل ممثل النيابة يظن بعدم وقوعه فتاريخ موكلي لم يبد فيه أثر التذكر والخشية إلا ساعة الغرق.. أليس إعلان موكلي إيمانه وإسلامه بلسانه يفيد وقوعاً التذكر والخشية؟!

النيابة (منفعلاً): إن الدفاع يخلط الأوراق، فلم يكن إيمان هذا الفرعون عند الغرق إلا اضطراراً وحيلة للنجاة.. ولو كان تُرك ليعيش بعد ذلك، لكان شأنه كسابق أمره.. فكم من آية رآها رأى العين فلم ترعه ولم تردعه عن طغيانه، وكم من وعد بالإيمان قد وعد ولم يف.

الدفاع: فلنسلم جدلاً بأن إيمان موكلي كان عن اضطرار.. فليكن! أليس من شأن الله: "أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ"؟.. فقد أجابه ربه وكشف عنه السوء ببشرى نجاته.. نعم وعد موكلي كثيراً ولم يف، هذا سابق أمره!.. ولكن من أدرى ممثل النيابة.. أن موكلي لو ترك حياً.. لكان كسابق أمره؟!.. هو على كل حال لم يعش بعد إيمانه.. وليس لنا أن نحكم على افتراض لم يكن!

النيابة: أية نجاة يقول بها الدفاع- يا سيدي- كما قلت: هو يخلط الأوراق ويبتر النصوص، واستشهاده النصي كمن يقول "لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ" ولا يكمل باقي النص.. فالنص كان توبيخاً من الحق تعالى على فساد هذا الفرعون.. وكانت نجاته بالبدن فقط ليكون عبرة لمن يخلفه من الأمم.

الدفاع: إن ممثل النيابة يعوز، قاموس المعاني والمذاق اللغوي، ليعرف الفرق بين التوبيخ والعتاب، وليدرك الفرق بين لسان الزمن الماضي ولسان المضارع!

– فالنص: "آلآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ".. لم يُعاتب موكلي من ربه لكونه من المفسدين.. بل قيل له ".. وَكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ" بلسان الزمن الماضي.. لكون الحاضر منه إيماناً وإسلاماً اللذين لو لم يقبلا منه لقيل له: وأنت من المفسدين، بلسان الزمن المضارع!.. أما عن قول ممثل النيابة بأن نجاة موكلي كانت بالبدن فقط، فليت شعري من أين أتى بكلمة فقط ولا وجود لها نصاً ولا فهماً.. كما أنه معلوم أن العذاب يقع مع البدن، ولا معنى للعذاب دون البدن.. وممثل النيابة يفهم من نص " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً" أن الآية بمعنى عبرة!.. رغم أن المعنى الصريح لكلمة (آية) أي علامة ودليل ويقين ظاهر، ومثلها قول زكريا "قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً".. ومثلها أيضاً.. قول الحق في شأن بن مريم: "وِلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ"

النيابة: وأي علامة ودليل يشير إليه نجاة بدن هذا الفرعون؟!

الدفاع: هذا هو بيت القصيد!.. فهو دليل على أن رحمة الله تسع من يشاء.. وأي سعة أعظم من وقوع الرحمة بفرعون؟! ولكن من الذي يدرك هذا؟! والنص: ".. وإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ".. ونأمل ألا يكون ممثل النيابة من هؤلاء الكثيرين الذين ذكرهم النص بالغفلة.

النيابة: كيف يقول الدفاع بوقوع الرحمة لهذا الأفاك، وسفير الحق جبريل يقول الرسول: "لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه حتى لا تدركه الرحمة فها هو جبريل لا يرجو له رحمة.. أيفهم الدفاع من هذا وقوع رحمة؟!

الدفاع: نعم!.. جبريل من مقام الغيرة على الله، ومن مقام البغض في الله، ؟؟؟؟؟؟ فرعون أمواج البحر ورماله فيضعها في فمه، حتى لا ينطق بكلمة

الإيمان، التي لو نطق بها لأدركته الرحمة، ولكن هل تغلب جبريل على نطق موكلي؟! النص صريح.. "قال آمنت.." إذن لم يمنع أداء جبريل نطق موكلي، أما وقد نطق فقد وجبت له الرحمة بشهادة جبريل!!

النيابة (غاضباً): كيف تقول بالرحمة وهذا الفرعون منصوص صراحة على أنه من أهل النار يقلب في العذاب المهين؟!

الدفاع: أتحدى وجود نص يقول ذلك!

النيابة (متهللاً): إليك هذا النص! "النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ويوم تقوم الساعة "أدخلوا آل فرعون أشد العذاب".. أيكفي هذا؟!

الدفاع: النص يتحدث عن آل فرعون، وليس عن موكلي! إن قلنا إن آل لوط في النار، أو ألا بعداً لقوم عاد.. هل معنى ذلك أن لوطاً وأهله معهم؟!.. أو أن صالحي عاد مبعدون عن الرحمة؟!.. إن آل موكلي لهم شأن آخر، ولست هنا للدفاع عنهم، بل عن موكلي فحسب!.. والذي لا ذكر له في النص القائل به ممثل النيابة.

النيابة: أليس هناك نص مستندي أن أهل الكبائر يحشرون مع هامان وهذا الفرعون يوم القيامة؟!

الدفاع: بلى!.. هذا بشأن الحشر، والحشر واقع للجميع، الصالح والطالح!.. والحشر ليس جهنم، وليس العذاب الأليم!

النيابة (ساخطاً): وما قولك في القول الفصل: "يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورد"؟

الدفاع: السيد الرئيس.. إن موكلي مقر ومعترف بأنه غرر بقومه وآله، وأضلهم ؟؟؟؟؟؟.. هذا في زمن جاهليته!.. ولكنه حين آمن وأعلن إسلامه، لم يُترك للحياة ليردهم إلى الحق.. فلم يتبعوه في إيمانه، فهو يقدِمهم يوم القيامة بحكم: "يوم يدعى كل أناس بإمامهم".. فهو إمامهم، أما ما أوردهم النار فهو عملهم ؟؟؟؟؟ معتقدهم، ولا ذكر في النص أنه يردها معهم!

النيابة (يائساً): وما تقول في نص: "فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ والأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى؟

الدفاع: هذا بشأن الغرق، فقد كان- كما جاء في النص- جزاء ومواخذة، ؟؟؟؟؟ ؟؟؟؟؟ النيابة لو يتدبر حكمة تقديم الآخرة على الأولى في النص، لعَلِم تأكيد أن المؤاخذة الأخروية قد وقعت لموكلي في غرقه، وأنه يوم القيامة لا مؤاخذة عليه، فحاشا لله أن يؤاخذ عبده مرتين!

ساد القاعة صمت مهيب وشرود.. وتحولت الأنظار تجاه فرعون، الذي بدا واثقاً متهللاً.. وقطع هذا الشرود صوت القاضي ملتفتاً لممثل النيابة:

- عندك شهود إثبات يا أستاذ؟!

النيابة (بصوت مبحوح): أكتفي يا سيدي بزوجة هذا الفرعون.. وهي سيدة ؟؟؟؟؟ ؟؟؟؟ حقاً ولا تقول إلا صدقاً.. وإنما يدعوني إلى استدعائها للشهادة وجود ؟؟؟؟؟ نصية: "وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ ونَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ونَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ" ؟؟؟؟؟؟؟ بأن هذه الصديقة متبرئة من عمل هذا الفرعون.

الدفاع: لو سمح لي السيد الرئيس.. إن الشهادة النصية يفهم منها سوء عمل موكلي قبل حاث الغرق التالي لانتقال هذه الصديقة لجوار ربها، لكونه كان يستخف قومه، ويقهر من يؤمن بالعذاب فأرادت هذه الصديقة النجاة من فتنة تعذيبه وقهره، وصرحت بسوء عمل فرعون قبل إيمانه.. أما إيمانه وإسلامه اللاحقان لذلك، فلاشك أنه عمل ليس سيئاً!.. بل لعله الحسنة الوحيدة التي تُذكر لموكلي.. وهي كافية وافية لمحو أي سوء سبقها.

القاضي: والدفاع. أعندك شهود؟

الدفاع: بلى!.. هي نفس شهود النيابة.. هي تلك الصديقة امرأة موكلي.. وهي كما ذكر عنها ممثل النيابة، تنطق حقاً ولا تقول إلا الصدق- شأن الصديقين- ولكني أوثر عدم استدعائها- واكتفى بشهادتها النصية.

القاضي: أن نص تقصد؟!

الدفاع: قول تلك الصديقة حين وقع بصرها على نبي الله موسى. قالت لموكلي " قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ولَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا".. السيد الرئيس، إن الصديق هو من يجرى الصدق على لسانه أبداً.. فإن نطق فلا ينطق إلا حقاً.. وذلك لأن الحق تعالى هو الناطق على لسانه، هكذا شأن تلك الصديقة.. "قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي ولَكَ" قد كان موسى قرة عين لها، فكيف كان قرة عين لموكلي؟!.. عسى أن ينفعنا".. قد كان لها نافعاً، فهو نبي وهي صديقة فكيف كان نافعاً لموكلي؟!.. إن كانت قد قالت بذلك- وقد قالت- بما جاء في النصوص.. وإن كانت قد صدقت، وقد صدقت بما شهد لها الرسول بالصديقية، فلابد من وقوع ما قالت

بـه: قـرة عـين لموكلي ونفـع لـه!.. ونفـتش في سـيرة وتـاريخ مـوكلي فـلا نجـد إلا نطقـه بالإيمـان وإعلانـه الإسلام.. فكان بين قول تلك الصديقة وبين تحقيقه زمن!

– طال أم قصر إلا أنه تحقق.. وأكتفي بذلك

القاضي (هامساً لمستشاره، ثم ملتفتاً لممثل النيابة): المحكمة تكتفي بالشهادة النصية للسيدة الجليلة دون الحاجة إلى استدعائها.

خلع القاضي نظارته ملتفتا تجاه الحاجب الذي بادر سريعاً:– رفعت الجلسة!

رغم طول الوقت في مداولة القاضي مع مستشاره إلا أن الغريب هو الصمت الذي ساد القاعة بعـد تلـك الجلسـة العاصـفة، ورغـم الحشـد الكبـير المتواجـد بالقاعـة، وربمـا كـان كـل يفكـر في الحكـم وحيثياته.. قطع هذا الصمت صوت الحاجب وهو يعلن:

– محكمة!

دخل القاضي ومستشاره، ليعلن الحكم، فقال تالياً من أوراق أمامه:

"رغم سوابق المتهم.. وتاريخه المليء بالسواد والسوء.. إلا أننا نقف هيبة وإجلالاً لكلمة الإيمان النصية التي قال بها.. وليس بوسعنا أن نشق عن قلب المتهم لنعلم نيته، وما يضمره في قوله بالإيمان.. ولا نملك إلا إتباع النصوص وصراحتها وهي لا تدين المتهم! فإن هيئة المحكمة تترك أمر المتهم إلى ربه كما هو الشأن مع سائر الخلق، فأمره إلى الله "يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ" " لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ"، وتبرئ هيئة المحكمة ذمتها من إدانته.. وقد جرى العرف في الأحكام بالإدانة أو البراءة، وإن كنا ؟؟؟؟؟ الإدانة. إلا أننا نجد حرجاً في التصريح بالبراءة.. ولما كان النص

أساس الأحكام فلا نملك أن نقول للمتهم: لست مُسلماً.. ولما كان الإسلام يجُبّ ما قبله وُجب علينا عض البصر وكف اللسان عما سلف من أداء المتهم أيام جاهليته!

القاضي (ناظراً إلى فرعون في قفص الاتهام): يا عم فرعون!!

فرعون: نعم يا سيدي.

القاضي: المحكمة لا تدينك!

طغى على القاعة ضجيج وصفير.. وأومأ القاضي للحاجب الذي بادر سريعاً:- رفعت الجلسة!

تهلل وجه فرعون بشراً.. وشكر "ابن عربي"، وشد على يده طويلاً.. ثم بادر بعيون تفيض بدمع الامتنان قائلاً: وقضية التعويض يا مولانا!!

أجابه بن عربي: وما التعويض الذي تربده؟!

فرعون: أنا يا سيدي أسلمت.. ولكن لم تسقط عني فريضة الحج أبغي واحداً من أحفادي يحج عني!!

سمع "فكري عب الحق" هذا الحوار شاغراً فاه!..وكانت قضية أخرى!

قضية في المنام

اعتلى الشيخ شاهد العارف المنبر في مسجد الضياء المحمدي بوسط المدينة ليخطب الجمعة، حادثتني نفسي أن الشيخ العارف سيتحدث عن آثار المحاكمة:

إخواني المؤمنين، أما حديثنا اليوم فهو قراءة واقعية في حاضر الأمة الإسلامية إخواني المؤمنين- ختم الله لنا ولكن بالحسنى- لما رأيت من حال المسلمين من فرقة واختلاف نحل وملل، وكل حزب فرح بما لديه من فهم وسلوك- ولم يقف كل حزب بما سكن إليه من نهج فهم ومسلك، بل تشاغلوا بتحرش وعداء لمن خالفهم.. وتناست كل فرقة ما دعانا الله إليه من وحدة ودعوة مع أهل الكتاب (قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا".. فرأيت في هذه الآية دعوة إلينا نحن المسلمين.. فأولى بنا كلمة سواء بيننا.. فلنتفق على ما يجمعنا ولندع الخلاف جانبا حتى نقضي على عداوة الجهل فينا.

فهل حسبنا أن نحفظ بعض سور القرآن لنكون أهلاً للإمامة والتقوى والجلوس في الصفوف الأولى في المساجد؟!

وهل حسبنا أن نتزيا بزي الرسول والتسمي بأهل السنة والأسلاف فنكون نحن الفرقة الناجية؟!

وهل حسبنا تمسحاً وتقبيلاً لقبور الآل والصالحين لنكون أهل الله، وأصحاب الفردوس في الجنة؟!

وهل حسبنا تعطيش حرف الجيم وقلقلة القاف لنكون أهل العلم واللغة؟!

ألا يخجلنا أن كثيرنا لا يدري الفرق بين كلمة الرحمن وكلمة الرحيم؟!

ألا يخجلنا أن أكثرنا لا يدري على من يلقى السلام للتحلل من صلاته؟!

ألا يخجلنا أن أكثرنا يجرؤ على الإفتاء؟!.. بل وكلما زاد في فتاوى التحريم استوثق في دينه، فأسرف ولا حرج؟!!

نسينا- في مآخذ العزّ- أن العزّ لا تكون بالإثم، وأن أجرأنا على الفتوى أجرؤنا على النار؟!

نسينا- في مآخذ العزّ- أن نقول فيما لا نعلم.. لا نعلم، وحسبنا قول الإمام مالك أن "لا أدري" ثلث العلم!

نسينا- في مآخذ العزّ- أن رب معصية تورث ذلاً وانكساراً خير من طاعة تورث عزاً واستكباراً!!

أين نحن من قول الله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)؟!

أين نحن من قول النبي صلي الله عليه وآله "كل المؤمن على المؤمن حرام، دمه وماله وعرضه"؟!

وكيف أصبحنا؟!.. أصبح كل منا يطعن الآخر في دينه ومعتقده.. كلنا مُجمعون على (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) ونسينا أن في متسع رحمة الله بابا مفتوحاً لدعواهم (...ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا).

يقول النبي صلى الله عليه وآله: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله.. وسنتي".. ولكن؟!

أين نحن من كتاب الله وقد جهلنا لغته؟!.. ولم نتبع ما يدعونا إليه من تفكر وتدبر!.. ولم نعد نفرق بين خطابه لعموم الناس، وبين خطابه لمطلق الإنسان، وبين خطابه لخاصة المؤمنين.. ولا معنى ندركه من التقديم والتأخير في ألفاظه، ولا للإطلاق والتقييد.

وسنة نبينا دأبنا فيها شكليات وانصرفنا عن جوهر الخلق والسلوك.. والتشريع أصبح النص فيه عندنا أمراً هامشياً.. فعندنا باب مفتوح اسمه القياس!!

.. ونسينا الأساس التشريعي: أنه لا تحريم إلا بنص! وأن القياس هو أمر اجتهادي يحتمل الصواب أو الخطأ.. فيكون غير مُلزم إلا لصاحبه! وله أجر الاجتهاد إن أخطأ وأجران إن أصاب.

بل وخلطنا بين مفاهيم لغوية مصطلحة في العرف، فالإجماع كلمة قصد بها إجماع الصحابة.. فأصبح مفهومها العصري إجماع أهل العلم؟!

بل كلمة الإجماع نفسها بمفهومها الصريح أصبحت في مفهومنا لا تشمل الإجماع! بل تعني الغالبية!! ومصطلح جمهور العلماء لفظ قصد به أصحاب المذاهب المعروفة في التشريع.. أصبحنا نفهمه بمعنى جمهور العلماء المعاصرين!!

وهكذا اختلطت علينا الموازين والمفاهيم، يقول الحق تعالى (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) لكون التحريم قليلاً، والأصل في الأشياء التحليل، ولكن أين هذا القليل الآن؟!.. وبين أيدينا قوائم حافلة بالمحرمات، ومن الذي

حرمها؟!.. لا نتورع من أن نقول حرمها فلان أو فلان، وفلان ليس نبياً مشرعاً!.. بل لفظ الكراهة في التشريع أصبح غير متداول، فالكراهية أصبحت تعني في مفهومنا التحرم فلم نقول بالكراهة؟!.. فالأسهل أن نقول حرام!!

ذهلنا عن أن وصايا النبي صلى الله عليه وآله قد تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان، فهذا يوصيه النبي: أمسك عليك مالك فإنه أنفع لعيالك، وذاك يوصيه عليه السلام: انفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً.

"كنت نهيتكم عن زيارة القبور الآن فزوروها".. الحديث والحكمة تقتضي وضع الشيء في موضعه، وقد تختلف باختلاف المكان والزمان والأشخاص.. وقد جاء في الخبر المروي عن رب العزة "إن من عبادي من إذا أغنيته: فسد حاله، وإن من عبادي من إذا أفقرته فسد حاله".

غالينا في ديننا ونحسب أنه الحق، تشيعنا لأشخاص من السلف والمعاصرين، رأينا فيهم الكمال- دون غيرهم- من رد عليهم قولاً، عاديناه واتهمناه في دينه، عددناهم معصومين فمن خالفهم رأياً أو فهماً فقد أثار جاهلية العصبية فينا! فكم من أعلام ومفكرين رميناهم بالكفر والزندقة، ولا جرم فعلوه سوى اجتهاد فكري قد نتفق أو نختلف معه، وقد نكون نحن المخطئين فهما فيصحح مفهومنا.

أصبحت قلوبنا لا تحمل حباً! فلا مقام لحسن النية في الآخرين! أصبحنا حكاما وقضاة، ندخل من نشاء الجنة، ومن نشاء النار!.. نكفر من نشاء ونلعن من نشاء حتى وإن قال لا إله إلا الله! وغفلنا عن أن التكفير واللعن إما يصيب أو يرتد على راميه!

فلم نشفق على أنفسنا أن يلحق بنا اتهامنا؟!.. فكيف نشفق على الإسلام والمسلمين؟!

بعد الصلاة سألت الشيخ العارف:

– على من نلقي السلام للتحلل من صلاتنا؟!

قال الشيخ العارف:

– حين تكبر تكبيرة الإحرام للصلاة، فأنت تخرج عن عالم المكان إلى حضرة ربك، فقد غبت عن عالمك الأرضي، فلما كانت عودتك بعد مقامك لمناجاة ربك بالصلاة تحب إلقاء السلام لمن غبت عنهم، فأنت تسلم على من غبت عنه، وأولهم نفسك فقد غبت عن مشاغلها ومتطلباتها فتركتها للقاء ربك.

– كيف أسلم علي نفسي؟!

– أن تسكن نفسك للمسالمة فتسلم وتُسلم، هو أن تسلم لربك في مسلكك فتعلم أن الله يرى فهو ناظر إليك، وهو معكم أينما كنتم وحيثما كنتم فثم وجه الله.

قلت العارف:

– كنت أظنك ستتحدث اليوم عن محاكمة فرعون وما تلاها من ردود فعل!!

– خطبة اليوم هي فعلاً من آثار المحاكمة: ندخل من نشاء الجنة ومن نشاء النار بل كنت سأتحدث عن القضية الجديدة التي آثارها السيد فكري عبد الحق بطلب تقدم به للقضاء!

– أية قضية؟!

– يقول السيد فكري، أن رجلاً وقوراً جاءه في المنام يبكي! فيسأله عم يبكيه فيزداد بكاؤه بل وينزع عمامته ويحسر عن رأسه ويلقيها بين يديه يناشده الله أن يقيم له دعوى قضائية وأملاه نص الدعوى.

– تقول في المنام؟! فكيف سيحضر للمحكمة؟!!

– قال الرجل للسيد فكري أقم الدعوى وسأحضر بنفسي وأن اسمه اللسان العربي.

– ومن الذي سيتولى عرض دعواه.. والدفاع عما يطلبه؟!

– الرجل بنفسه، والسيد فكري ليس إلا مقدماً للدعوى.

كانت سلعة العرب المقدسة.. بها يقيم الرجال.. تقوم من أجلها الحرب وتتأجج النيران.. وببذلها يُصنع السلام!.. نظمها الجواهر واللآلئ الحرة.. وصائغها الفتى، وأي فتى!.. أسواقها البيت العتيق أعظم مقدسات العرب.. وحوانيتها جُدر الكعبة وأستارها.. يطوف بها الهائمون والمحبون والمكلومون.. هي بلسم الجراح وترياق السموم.. وتاج العرش والصولجان.. هي الفارس.. والفيء والغنائم.. هي الدين والإعجاز.. هي الكلمة: لغة العرب!

هكذا كانت، ولكن: كيف أصبحت؟!

– المحاكمة–

ساد قاعة المحكمة صمت جليل بعد صياح الحاجب:

– محكمة!

دخل القاضي ومن خلفه اثنان من مستشاريه، ليعلن افتتاح الجلسة ثم بادر بالسؤال عن المدعي، فقام شيخ وقور، تبدو على ملامحه آثار السنين، ووميضة بهاء تعلو وجهه، كان حاسر الرأس، تقرأ في عينيه مسحة من الحزن الدفين، وكأنه يتجلد عن ألم يعتصره، إلا أنه بدا متماسكاً وهو يومئ للقاضي بوجوده، سأله القاضي:

– ما اسمك؟

كانت نبراته قوية شجية وهو يجيب:

– اسمي اللسان العربي.

طالع القاضي في أوراق أمامه، ثم تباحث مع مستشاريه هامساً، ونظر إلى الشيخ قائلاً:

– خصومك كثيرون، لن نتمكن من إيداعهم جميعاً قفص الاتهام، سنكتفي باثنين فقط، ابنك "عربي" وسيقوم مقام أبنائك المتهمين، وخصومك الفرنجة، سيقوم مقامهم "أعجمي" وهو مرشح من قبلهم لدفع الاتهام، أعندك مانع؟

اللسان العربي: لا.

القاضي: ما ادعاؤك بالنسبة لأبنائك؟

اللسان العربي: كنت يا سيدي: هويتهم.. فضيعوني!.. كنت لهم النغم والوتر فانصرفوا عني إلى النشاز والضجيج.. كنت الشجن، فآثروا العويل!.. كانت جوامعي أحاديث نبيهم، فتصاموا عنها!.. كنت قرآنهم فهجروه، وتسفلوا عن العروج.. كنت دينهم وديدنهم، فأصبح جلهم لا دين له!.. أهكذا يصنع الأبناء مع أبيهم؟!

القاضي: وما طلباتك؟

اللسان العربي: حد العقوق! وإبراء ذمتي منهم، بمحو هويتهم عني!

"عربي"- الابن-: إنني ابنك!.. كيف تتبرأ مني!.. كيف تطلب محو هويتي وأنت أهلي وعشيرتي؟

اللسان العربي: قال لي ربي: "إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح" ثم أردف بصوت شجي:

إلى متى لغة القرآن تضطهد

ويستبيح حماها الأهل والولد!

القاضي: وما ادعائك بالنسبة لخصومك الفرنجة؟

اللسان العربي: هم غرروا بأبنائي- بزرقة عيونهم- وحرضوهم على الفساد.

القاضي: وطلباتك؟!

اللسان العربي: حد الاغتصاب!

الأعجمي- ثائراً-: هذه عنصرية، وقبلية، وجاهلية!.. إنني أقر يا سيدي القاضي أنني دعوت "عربي" وإخوته، ليس تغريراً واغتصاباً، بل لأحرره من التخلف والبداوة!

اللسان العربي: سيدي القاضي، أية عنصرية يقول بها هذا الأعجمي؟! وأنا لم ؟؟؟؟؟ أبنائي عن تعلم لسان الأعاجم.. وأية قبلية؟! وجوامع الكلم مني تقول: لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى.. وكيف تكون جاهلية، وأنا الذي أدعوهم إلى لأهديهم سبل الرشاد؟!

القاضي: وهل معك مستندات تثبت أنك دعوتهم إليك؟!

اللسان العربي: دعوتي إليهم مدونة في قاموس جوامع الكلم مني ونصها: "تعلموا العربية وعلموها للناس" ستجدها يا سيدي القاضي في باب حديث شريف.

الأعجمي: أسأله يا سيدي القاضي ولماذا لا يتعلم هو لساني أنا؟!

القاضي- للسان العربي-: لك أن تجيبه، ودعونا نستمع إلى تحاوركما.

اللسان العربي: قلت إني لم أنهه عن تعلم لسانك، ففي قاموسي: من تعلم لغة قوم أمن مكرهم، ولكن لمن البقاء، أليس للأصلح، أنا أدعوك أيها الأعجمي إلى الغنى، وأنت تدعوني إلى الفقر؟!

.. أتدري خطوط السنين على جبيني: هي العبارة، والمقالة، هي الشعر والغناء، هي النغم والشجن، هي الحكم والرمز، والإيماء والإشارة، هي العقل والعلم، هي التتابع والترادف هي السجع والطباق، والجناس والاستعارة، هي البلاغة والإعجاز.. هي التحدي!

الأعجمي: وأنا؟!

اللسان العربي: أنت اللغو.. أنت الصخب.. أنت الشتات.. أنت القليل.. أنت السراب.. أنت الزئل.. أنت الفقير!

الأعجمي- ساخراً-: ولماذا لا تدعو أبناءك إلى ترجمة كنوزك وتراثك أيها الفصيح!

اللسان العربي: وكيف يسع الضيق الواسع؟!

الأعجمي:لا أفهم؟!

اللسان العربي: أرأيت؟!.. ستحتاج إلى إنفاق عمرك واستعارة أعمار أبنائك وأحفادك لتدرك اليسير من عباراتي.. ذاك أحد أبنائي فتى يدعى: علي.. يقول لو كتبت في نقطة الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ما وسعت كتبي سبعين وقرا.. هذا في النقطة! فكيف بالعبارة أيها الأعجمي؟!

الأعجمي: إذن فهو أنفق كل عمره في مطالعة الكتب!

اللسان العربي: كلا ولكنه سر المذاق..

لا تحسبوا الناس مثلنا بالكتب تصير

فللدجاجة ريش ولكن لا تطير!

الأعجمي: وما الذي تعنيه بالمذاق؟!

اللسان العربي: أقول لك!.. هل شربت القهوة العربية؟!

الأعجمي- مدهوشا-: لعلي تذوقتها مرات قليلة.

اللسان العربي: إذن صفها لي يا صاحب الفهم! حتى أدركها، كيف طعمها؟ كيف نكهتها ومذاقها؟! وأدوات الوصف عندك جميع الكلمات والمرادفات.. فلنجعلها طوعاً لك.

الأعجمي- بعد تفكير-: كيف أصف مذاقاً لتدركه.. العبارات لا تفي.. لابد أن تطعمها حتى تعرفها.

اللسان العربي: هكذا أنا مذاق لا يُدرك، إلا أن تطعمه وتتذوقه، ستجد بعد ذلك دساتيركم، وقوانينكم بضعة أسطر في قاموسي! وستجده محكما لا خلل فيه.. أنا لغة العرش والسمو.. وأين الثرى من الثريا يا هذا؟!

دق القاضي بمطرقته متسائلاً: أين "عربي"؟!

(كان "عربي" منشغلاً بفتاة من الأعاجم في حديث هامس من وراء قفص الاتهام، حالما تائها).

كرر القاضي تساؤله:- قلت أين عربي؟!

لكزته الفتاة تنبهه!

عربي: نعم يا أونكل! ثم مستدركا.. يا سيدي.. يا سيدي.

القاضي: ما قولك في اتهام أبيك للأعجمي؟!

عربي: هه!.. ما تراه يا سيدي!.. قصدي..

اللسان العربي: أبني مخمور يا سيدي، هلا شممت فاه

القاضي يأمر الحاجب بتشمم فم "عربي".

الحاجب: رائحة منقوع.....! سكران يا سيدي!

اللسان العربي متهكما: سكران حضارة!

القاضي- عابسا وهو يسجل في أوراق أمامه-: يتم التحفظ على "عربي" ويوصي بإيداعه إحدى المصحات لحين معاودة النظر في القضية.

خلع القاضي نظارته، والتفت نحو الحاجب الذي بادر سريعاً:

– رفعت الجلسة.

نظرت للشيخ عارف وأنا بالفعل شارد اللب، وقلت له وكأني أحدث نفسي:

– هذا الرجل قادم من منام؟! بل كأني كنت في منام

– الآن صادقت الحقيقة يا عقيل!

هززت رأسي وأنا أسترجع ما قلت وما قاله العارف، فوجدتني أقول له:

– هل الحقيقة أني كنت في منام؟!

– نعم! النوم آية تدعونا إلى اليقظة!

– بالله يا شيخ شاهد، قل لي معارفك عما قلت، ولا تدعني أحتار في ألغازك.

– ألم تسمع قول الحق تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ)؟

– بلى!

– لو تدبر كلام الله ستجد أن النوم آية من آيات الله! وهي واقعة بنا بالليل، فهي حالنا بالليل، والنهار موقعه في الآية معطوف وما يقع للمعطوف عليه هو ؟؟؟؟؟ ما يقع للمعطوف.. أليس هذا شأن اللغة؟

– بلى!

– والقرآن العزيز جوامع كلم.. فلم يقل منامكم بالليل وبالنهار (بالباء) فيفهم حدوث النوم في الليل أو النهار، بل قال بواو العطف (والنهار) فنحن نائمون بالليل والنهار نوماً لا يقظة فيه!

– ولكننا الآن في حال يقظة يا شيخ عارف!

– هكذا تظن!.. والأمر خلاف ظنك، فأنت الآن كمن رأى نفسه في المنام أنه نائم ثم صحا وذهب إلى عمله، وهو لم يبرح مرقده!، فنحن من أمر اليقظة على وهم.. وإذا كان النوم آية فاليقظة لاشك آية! ولكن الله لم يذكرها لنا بذلك وما ذلك إلا لكون الآية هي الشيء المنظور والملموس، فإن اليقظة من آيات الآخرة وليست من آيات الدنيا لعدم وقوعها فيها! أما في الآخرة فهي كشف الغطاء!

– يقول النبي عليه وآله السلام: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" فما الذي يعنيه الحديث؟!

– لم يقل النبي عليه وآله السلام أن الناس كالنيام، بل نيام! والنبي عربي فقصد في المعنى أن حكم الحياة في دار الدنيا (النوم) كحال مصاحبة للناس– وهو الأساس، وأن الموت هو الانتباه من غفوة النوم! وليس يقظة! فهو مجرد انتباه فاليقظة هي يقظة الآخرة "فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ".

– هل من مستيقظ في الدنيا؟!

– نعم!، صاحب هذا الحديث! فإن النائم لا يدرك حال نومه ولكن يدرك من هو يقظ أن هذا النائم نائم! فإن النبي ما أخبرنا بحال نومنا وهو نائم، بل هو

؟؟؟؟؟؟ وتحقيق المستيقظ، والمستيقظ في الدنيا هو من ولد مرتين، كما قال السيد المسيح "لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين!" وحتى يولد مرتين لابد له من موت بينهما والموت بمعنى موت النفس، مطالبها، وشهواتها.

..فمن ماتت نفسه تخلى عن السفليات، فيصبح أمره كأمر من: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" فتظهر فيه العلويات وهي الحقائق، فإن الله أخبرنا أن رزقنا في السماء، بل أقسم أنه لحق، فالحقيقة لا ندركها إلا من حال يقظة، ؟؟؟؟؟ لمن لم تمت نفسه مذاق لحال اليقظة.. إلا من مقام الوهم والظن، كما ظننت يا عقيل أننا أيقاظ!

– أنت يقظ يا شيخ عارف!

– لا لست يقظاً!.. غاية الأمر أني أفهم منطق اليقظة، أما مذاقها فلا يتحقق إلا لصاحب نفس مطمئنة راجعة إلى ربها، ولابد لذلك من مسلك: إقامة الطاعات، وتهذيب الأخلاق، ومخالفة النفس وهواها.

– مادم حالنا في الدنيا مناما لا يقظة فيه، فما نفعله فيها، وما نراه، وما نسمعه هو من قبل المنام، فما هو تأويل منامنا؟ لابد للمنام من تعبير وتأويل.

قال الشيخ العارف:

– العالم العلوي والعالم الأخروي هما عالم اليقظة، وعندهما تأويل منامنا!.. ألا ترى النبي عليه وآله السلام في عروجه، قد سأل جبريل عن رؤى رآها ؟؟؟؟ له، فالحقيقة هي ما أوله جبريل لا ظاهر الرؤيا.. فإن كانت حقيقة اللبن ؟؟؟؟؟، فقد أوله النبي بالعلم وذلك حين رأي أنه يشرب لبنا ويعطي فضله عمر وقد كان النبي عليه وآله السلام يقول حين يشرب لبناً بعد أن يحمد ربه، اللهم

بارك لنا فيه وزدنا منه، ولم يُطلب منه عليه السلام طلب المزيد من شيء سوى العلم "وقل رب زدني علما" فقوله عليه السلام في اللبن اللهم زدنا منه دليل على أنه كان يتأول اللبن المادي بالعلم، ولا يتأول في شيء إلا في شأن المنام، فكان عليه السلام يتعايش في الدنيا- في حال اليقظة فيها- كشأن النائم فيؤول أفعالها.

- دعنا يا شيخ عارف نعود لقضية الساعة: لغتنا الجميلة تحاكم أبناءها! وماذا سنفعل في الابن المخمور؟!

- بل ماذا ستفعل للأب المكلوم؟!

- السيد فكري عبد الحق، أعد جمعاً من إخوان "عربي" سيلاقون أباهم اليوم..

- تقصد الليلة! دعنا نذهب لنري من شأنهم.

- كأنك علمت أن السيد فكري قد أرسل لك دعوة للحضور معي!

- عرفت بالفعل!

- كيف؟!

- يا عقيل! تقول علمت وأقول عرفت، العلم إنما يكون عن خبر صحيح منطقي ومادي، كأن تظهر لي بطاقة دعوة، وهذا لم يحدث فإذن لا علم عندي بهذا الشأن!.. أما قولي عرفت، فالمعرفة إنما تكون عن فكر يستساغ وقوعه، يستعان عليه بالإرهاف الحسي، وهو ليس بيقين حتى يتحقق، فحين قلت أن السيد فكري أعد جمعاً من إخوان عربي، رجوت في نفسي أن أحضر، وتمنيت أن يجعلني شاهداً على هذا اللقاء، وقرأت في عينيك وأنت تقول بخبر الجمع، خبراً آخر توارىه بعض الوقت!

الابن الضال!

أثارني ما رأيته من أحزان.. في نفوس المتعقلين من إخوان "عربي" حين رأوا أباهم يحتبس الدمع، ويتمتم بكلمات تنبئ بالأسى والذهول!، حين جاءوا أباهم عشاء يبكون، يسلمون على رأسه ويقبلون كفيه، وأخذوا يبدون الأعذار ملتمسين سماح أبيهم وعفوه! مطرقين الطرف لا يملكون النظر إليه كي يتحاشوا رؤية اعتصار الألم البادي في عينيه،.. أقروا بشرود أخيهم "عربي" وضلاله في التيه الغربي بحثاً عن شهوة زائلة وسراب خادع!، فقد خلاله الكثير من ملامحه وبدا ذلك ظاهراً في لكنة لسانه!

ذكر اللسان العربي أبناءه بما قصه عليهم من قبل وهم بعد صغار! عن ذلك الرجل الذي رأى طائراً يمشي بطريقة بهلوانية! فأراد أن يقلده في مشيه، ثم في نشوة محاكاته نسي سيرته الأولى! فلما أراد أن يعود إلى سابق عهده بالسير لم يستطع!، ذكرهم أن مقصد ما قصه عليهم هو ما تحويه القصص من حكم وإشارات وعبر، ود لو كان "عربي" قد وعاها وفهم مغزاها.

عتب اللسان العربي أبناءه المتعقلين! بما كان حريًا بهم ألا يتركوا أخاهم بل كاشفهم بما كان في نفوسهم من إعجاب وانبهار بأخيهم، بما غرهم به من مظاهر وقشور حضارة كانوا هم لبها! قال لهم- اللسان العربي- بأن دعوة العالمية إن كانت للتقدم والعمار فنعما هي، ولكن كيف يتحضرون بترك أصلهم وجذورهم وخلقهم، بل كيف يتركون أعظم سلعهم!: كلمتهم ولسانهم! وكيف يقبلون في العولمة زبد الحديث ويدعون ثروات تراثهم، كيف يتركون جوامع كلم مستبدلين بها عبارات مبتورة لا جذور لها، غنية باللغو والثرثرة.

قال لهم اللسان العربي:

- إن كان الغرب لكم مبهراً ويدعوكم إلى نبذ الجهل فكم دعوتكم إلى العلم في جوامع كلمة "اطلبوا العلم ولو بالصين".. لقد قدم الغرب عليكم بزخارفه وجحافله ليستخرج من أرضكم كنوز وثروات مادية، هي من دعوة ابن بار قال في دعواه "وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ..." كان حريّا بكم أن تستعبدوا الغرب بتلك الثروات، أو على الأقل تكونوا كفوا له وندا.. ولكن المدهش والمثير أنها في أرضكم يستخرجها كيفما يتراءى له ثم يقوم بتسويقها والاتجار بها والثمن لمن؟!

ضحك عليكم يا أبنائي! وقال لكم: هو مالكم! ولكن لدي مصارف ومتاجر ستجعلكم تربحون أكثر مما لو باتت تحت أيديكم!.. فصدقتموه! وقبلتم طائعين وضعها بين يديه، وأصبحتم بالكاد تحصلون على متطلباتكم!

اتسعت عينا الشيخ وهو يردف بأسى:

- إن شاء أحدكم أن ينفرد بما حابيتكم به من عقل وفطنة وذكاء، فطالب بحقه لديه، أثاركم عليه! وأوقع بينكم لمحاربته ومعاداته، وابتاعكم سلاحاً لتقتلوا به أخاكم!، سلاحاً أطول يا بني من قاماتكم! لعلكم ترجعون إليه.. وبالفعل ترجعون مبدين عجزكم ليتولي عنكم شامخاً!!.. قتل أخيكم!! كأني بكم نسيتم -وأنتم بعد صغار- قصة الأسد العجوز والثيران السمان!

يا بني اعبثا أقول! إن الأجنبي قدم إليكم طامعاً ويحمل في أعماقه ذل الاحتياج! لم تقرؤا ذلك فيه رغم ما حابيتكم به من فراسة واستبصار!.. حسبتم استعلاءه عليكم شموخاً أصيلاً فيه! فجدع أنوفكم وأجبركم على الحديث بلسانه، وكان له ذلك.. كان بوسعكم أن تجبروه- وهو في ذل الاحتياج- إلى

الحديث بلغتكم، وإلى احترام طباعكم وعاداتكم، ولكنكم لم تفطنوا لذلك فكنتم له مطية.. وأية مطية!!

يا أبنائي.. تركت لكم وصية وضعتها بين ناظريكم بين علامتي تنصيص "تعلموا العربية وعلموها للناس" بل وكتبت بجوارها عبارة حديث شريف، كي تحرك فيكم عناية واهتماماً!.. كانت الفطرية التي دأبت على إنباتها من غرسها فيكم: حرمة بناتكم ونسائكم!.. أجسادهن لا تبدو إلا لكم!.. فراودكم الغرب المبهر وطالبكم برفع خمارهن! والدعوة إلى سفورهن وعريهن! وإلا فلا دخول من بوابة التحضر والعولمة!!.. أفشى بينكم الإرهاب بأيدي أبنائكم!، وهو المحرك الأوحد لهم!

.. وما أخشاه عليكم وتتقطع له أوصالي، وينفطر له كبدي هو دينكم الذي أوشكتم أن تقولوا عنه قريباً "فولكلور".. وليس ببعيد أن تهدموا قبلتكم وكعبتكم بمعاولكم!- تحرزاً من التخلف والبداوة!!- ففي قاموس الغرب "الدين أفيون الشعوب"!!.. وقد تنبأ العربي الأعظم الذي لا يكل لساني عن الصلاة عليه وآله، بهدم كعبتكم، ورفع قرآنكم، وفي ذلك قيامتكم وزوال دولتكم وصولتكم!.. إن كانت لكم- يا أبنائي- قبلة، فهي مقصد توحيدكم، وإن كنتم متفقون عليها، فأنتم مختلفون على من يؤمكم!.. فكلكم يرى نفسه أهلاً للإمامة، وتلك مصيبة لا أملك إلا أن أقول حيالها: أف لكم!

جثا أحد أبناء اللسان العربي على ركبتيه أمام أبيه مصفر الوجه، تعلوه كآبة حزن وخوف وإشفاق.. متسائلاً في أسى:

- وكيف المخرج أيها الأب العظيم؟! كيف نجاتنا مما يقترفه إخواننا؟!

اللسان العربي:

– تمسكوا يا بني بتلك الجمرة!.. ولا تلقوها من أيديكم.. ألم تكن تلك نبوءة النبي العربي "سيأتي يوماً على أمتي القابض فيه على دينه كالقابض على جمرة من النار".. فاجعلوا الدنيا لأهلها.. وحسبكم أن تكون الآخرة لكم، ادعوا إخوانكم من جديد إلى لسانكم وخلقكم ووحدتكم.. إن كانت بدايتكم غريبة، فها هي تعو غربة، وطوبى للغرباء!

يا بني! ليس هناك عتاب حقيقي على الأمم التي استخفتكم وغررت بكم ثم استعبدتكم بزخرفها الزائل، إنما أعتب عليكم لأنكم بنيتم حضارة ونهل العالم من علومكم وثقافتكم، ثم تقاعستم! وتشاغلتم بإقبال الدنيا، أخذكم العجب، فطرحكم في أودية الطلاسم والنسيان!.. تركتم منهجا معجزاً مدونا بين أيديكم، فصار كتباً وسجلاً تزينون به جدرانكم، ولا تعون منه الحروف!.. دعاكم كتاب ربكم الذي أكرمني– كأب لكم– أن جعله بلساني.. إلى التفكر فهل تتفكرون؟! وإلى التذكرة أفلا تتذكرون؟! وإلى التساؤل فلم تتساءلوا؟! وإلى الاستبصار فاستجبتم الظلام! وإلى التعقل، ولكن العقل ولي منكم!

تسألون يا بني النجاة!.. ارجعوا فتذكروا، واقنعوا باليسير، تملكوا الكثير! التزموا لسانكم وثقافتكم وعلومكم وخلقكم، الزموا باباً واحداً تفتح لكم الأبواب جميعاً.. واخضعوا لسيد واحد، تخضع لكم الرقاب!

اجتمعوا– يا بني– على ما اتفقتم عليه، ودعوا النزاع جانباً، تواضعوا يا بني واعلموا أن قول لا أدري ثلث العلم! وحسبكم!

دعوتكم للمجادلة بالتي هي أحسن، هذا مع أعدائكم، أفلا يكون ذلك أولى فيما بينكم!!

يا بني اذهبوا فتحسسوا من ربح أخيكم عربي، ولا تتركوه في مصحة إفاقته حتى تسمعوه أذان الصلاة! عله يحرك فيه شحنا وإيماناً.. دعوه يعود من ضلاله، فليس بأحد أفرح من فرحة الأب بعودة ابنه الضال!

نظرت للشيخ العارف، فقرأت في عينيه حزنا وشحناً وهما، وكأني أرى نفسي في مرآته فقد كنت أحمل في نفسي مشاعر كآبة ثقيلة، لا أدري كيف ستطرح عني؟!

ولكن سرعان ما خفف عني كثيراً مما أجده لقاؤنا بالسيد فكري الذي بدا مبتسماً ومشجعاً سألته:

– ما العمل؟!

أجابني وهو يضحك:

– تعلموا العربية وعلموها للناس!

– الواقع سيئ!

– حسبك أن تعلم ذلك لتبدأ!

تدخل الشيخ العارف في الحوار:

– الأمر يتطلب وقفة على الأطلال!.. قبل أن يشكونا القرآن!!

اعتلى الشيخ شاهد العارف درجات المنبر لا ليطرح قضية اللسان العربي على المصلين بمسجد الضياء المحمدي، ولكن ليثير قضية من داخل القضية.

إخواني المؤمنين– ختم الله لنا ولكم بالحسنى– كان من شأن العرب الاهتمام بالكلمة، والعناية باللسان فالأكثر فصاحة هو الأوفر عقلاً والأعلى شأنا، والأولى بالسيادة، وكانت جدر الكعبة– أقدس مقدسات العرب– حوانيت للكلمة وكانت العبارات والمساجلات مجداً تكلل به القبائل وتاريخاً يؤرث للأبناء.. فلا غرابة أن يبذلوا كل غالٍ ونفيس من أجل تنشئة أبناءهم بلسان فصيح.. فاللغة هي مفتاح النبوغ، هي البداهة والعقل والفراسة، هي الشرف والسمو.

ولعلنا نتساءل عن سر حرص الآباء على إيفاد أبنائهم إلى قبائل بعينها للرضاع بعد أشهر قليلة من ميلادهم؟!.. فلم يكن الغرض هو إرضاعهم أثداء تفيض لبنا!.. بل إرضاعهم فطرية اللسان وبداهات اللغة، فينمون على الفصاحة والبلاغة وحسن البيان.. وكان ذلك هو التعليم الإلزامي لأبناء العروبة فالصحائف المصاغة بالنظم والشعر، تقيم بالنقد والذهب، وسط مجتمع لا يملك من سبل الحياة إلا اليسير.. فالكلمة هي الطعوم والغذاء، هي الدين والديان، والحرب والسلام.

في هذا المناخ اللغوي نزل القرآن العزيز، ليسمو على كل كلمة، ويبهر أهل الفصاحة والبلاغة فيستمعوا إليه بإنصات خاشع.. ويحجموا عن تحديه الذي أعلنه.. مسلمين بأنه كلام الله المنزل.

ومع البيان القرآني لابد من استحضار دروب العرب ومنوالهم بما هو مألوف ومتوارث من نظم البيان وملكات الحس والذكاء الفطري والوجدان العربي لتدرك حكم القرآن وحقائقه وأحكامه، وبالتسليم السمعي نستلهم الإشارات، ونبلغ العبارات فتسمو الهمم، وتنفذ المعاني إلى الأغوار بسلاسة ويسر، فتثمر أنواراً في القلوب وتجلي البصائر، فنرزق اليقين ونتوج بالتمكين.

ولكن من واقع العرب المعاصرين، سنجد انحسار للملكات واندثارا لفطرية الإيمانية، فقد أصبحنا نعاني من فهم المعنى الصريح! فكيف بالإشارات والتلميح؟! وليس هذا فحسب، بل ولت الأنوار منا وننشدها فلا نجدها!!

فقد هجرنا قرآننا العظيم حتى وإن كنا لا نفتأ عن تلاوته وترديده، قلوبنا إن لم تكن مملوءة بالدنيا فهي مشغولة بها، مشفقة من فواتها و (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) وهو ما كان يخشاه علينا الرسول صلى الله عليه وآله. والذي نفسي بيده ما الفقر أخشى عليكم.." الحديث.. فليتنا جعلنا الدنيا في أيدينا ولكنها بلغت القلوب واستقرت بها.

فالقرآن لا يرقى عن حناجرنا، فلا سبيل لدخوله قلوبا لاهية.. بل وحتى اللسان أضحى لا يرقى درجات التعبير والبيان، حيث انشغلنا عن المحافظة

على لغتنا التي كان السلف يولونها كل العناية والاهتمام وجنحنا إلى تعلم اللسان الغربي وعددنا ذلك سموا للتحضر، وتركنا وصية النبي صلى الله عليه وآله "تعلموا العربية وعلموها للناس"..

وظننا أننا نحسن صنعا حين قمنا بترجمة معاني القرآن العزيز إلى سائر اللغات، وبذلنا من أجل ذلك الكثير، وإن كنا لا نثبط همة واجتهاد من قام بها إلا أننا نقع تحت تساؤل: أليس ذلك خلاف الأولى؟!

..فقد تركنا أصلاً ونصاً إلى اجتهاد لا يعفي من ترك وصية النبي الأعظم " تعلموا العربية وعلموها للناس"، فترجمة المعاني بلا شك لا ترقى إلى مقام الاستيعاب، فإن القائم بها زيد أو عمرو فإن كان قدر عمرو من إدراك المعاني حسوات من بحار القرآن العظيم! فبم يفيض على غيره وبأي قدر؟!

وإن كنا بلساننا العربي الحالي فقدنا الكثير من المفاهيم الفطرية للغة، فكيف بفهم القرآن والكثير من معانيه لا تدرك إلا مذاقاً، بل والوقوف مع حرفية المعنى اللغوي لكلماته قد يحجب أنواراً لا تدرك إلا بالقلوب.. فالقرآن خطاب للإنسان من مقامات.

فمقام تهيم له الأرواح (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) فحين تهيم الأرواح، تتأهل لما هو آت (إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ...).

ومقام جلال مهيب تقشعر منه الأبدان والجلود إجلالاً (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ).

ومقام تشيب له الرؤوس.. "شيبتني هود وأخواتها..." الحديث، لقوله تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)، (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ).

ومقام للمؤانسة (ومَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى).

ومقام للمداواة والتثبيت (فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ)

فتلك لغة القرآن مقامات تثمر أحوالاً وسماعها أجدى من ترجمتها، فقد تجدي الترجمة في الأمور التشريعية، أو لسرد حقائق مادية، ولكن أبداً لا تكشف حجبا ولا تهز أفئدة، بل حرفية عقلية فحسب.

وقد يكون الأثر القرآني لتاليه بلغته المنزل بها أعظم- وإن كان يجهل العربية- ممن هو مثله يجعل العربية، ولا يبلغه إلا ترجمة المعاني، فالأول يتلو كلام الله كما أنزله، فهو مستمع لكلام الله، وهو متبع لأمر التلاوة (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) وثمرة الفهم تأتيه تكرما من منزله تعالى فهو الكريم.. (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) أما الثاني الذي لم تصله إلى ترجمة المعاني، فلم يتبع أمر التلاوة ولم يسمع كلام الله، بل استمع إلى مفهوم وإدراك زيد أو عمرو.

ألم يأن لنا بعد أن نعاود اهتماماً عملياً لوصية النبي العربي بتعلم العربية وتعليمها للناس، ليدركوا بأنفسهم هدي الله.

.. إن فعلنا نكون أهل القرآن العظيم، وتحق لنا شفاعته.. وإن لم نفعل أفلا نشفق على أنفسنا أن يأتي القرآن خصماً لنا يوم الموقف العظيم، يشكو هجرانه ويشكو ضياعه؟!

.. إن لم نفعل نكون قد نعينا أمة محمد، ونعينا الإسلام، ونعينا القرآن

اللهم أهد أمة محمد

اللهم استر أمة محمد

اللهم أجبر أمة محمد

دين وسياسة

لم أكن أدري- تاريخياً- أنه في عهد القرامطة قد تم انتهاك حرمة المسجد الحرام والكعبة المعظمة مرات، وأنه تم الاستيلاء على الحجر الأسود وأصبحت الكعبة بلا ركن المبايعة والاستلام!.. وإن كان المسلمون تمكنوا من استعادة الحجر مرة أخرى، بعد دفع فدية نقدية!

أين كان الإسلام آنذاك؟!.. وأين المسلمون؟!.. وأين جيوشهم؟!.. ألم يصرخ أحد وامعتصماه؟!

أهو بلاء حل بالمسلمين أم فتنة؟!.. أم هو جزاء كتيه بني إسرائيل في الأرض؟!

أين الجهاد؟!.. أين الشهادة؟!

قاطعني السيد فكري عبد الحق:

- بالله واحدة.. واحدة يا أستاذ عقيل!

ثم مستكملاً وهو يرشف من فنجان قهوته:

- كان الإسلام آنذاك في قلوب أهله، أما ظاهره- آنذاك- فهو غريب! كشأن البداية.. أما أين كان المسلمون، فقد كانوا في شغل شاغل بالغنائم والفيء والسرايا، كان علماء الرسوم يدعون على الكفار! ويسألون الله أن يربهم فيهم آية- والبقية في حلقات الذكر هائمون: الله.. حيّ، وينتظرون بدوياً يعيد الأسير.

كان المسلمون بين أصحاب عمائم تطول وتقصر، مختلفة الألوان، وأصحاب مراقع يلبسونها خلعاً!.. يسيحون في سفوح الجبال ويختلون في كهوف الفتوح!

نظر لي فكري وهو يسألني بنبرة تعجب:

– تقول وامعتصماه!.. إن فتشت فيها ستجد تاريخاً عنترياً جائراً!.. كلنا راضون عن أن يكون ثمن صرخة امرأة، احتلال مدينة! يقتل ذكورها، ويستعبد فتيانها وتسبي نساؤها!! أي علاقة للإسلام بهذا وبين أيدينا منهجه؟! ولكن العلاقة بالمسلمين فقد دعاهم حكامهم للجهاد في سبيل الله! فطوع لهم علماء الرسوم الآيات والسنن فأظهروا وأخفوا ووضعوا الكلم في غير مواضعه فكانوا ظالمين!.. ثم بعد أن يثمر الطغيان بإقبال دنيا يزداد طغياننا فنمجد الخلفاء ليترفلوا في ثياب التقديس!:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار!

كأنما أنت النبي محمد!

وكأنما أنصارك الأنصار!

أليس هذا شعرنا في الخلفاء يا شيخ عارف؟!

الشيخ العارف:

– بلى! وقد قيل في الخليفة المعز لدين الله:

ندعوه منتقماً عزيزاً قادراً

غفار موبقة الذنوب صفوحا

أقسمت لولا أن دعيت خليفة

لدعيت من بعد المسيح مسيحا

ضحكت رغماً عني! وأنا أردد:

– الله الله يا بدوي جاب الأسري! أليس المعز هذا هو الذي منع طعام الملوخية المشهور عند المصريين!.. وهل صحيح أن السبب شهقات النساء؟!

استأنف السيد فكري حديثه متغافلاً عما قلت:

– تقول يا أخ عقيل أين الجهاد؟!.. أي جهاد تقصد.. لابد أن تعرف الجهاد كمنهج في مفهوم الإسلام وبين أطماع حكام طوعوا الدين لتوسيع رقعة ملكهم!

– لابد أن تعرف مقصد الحق تعالى عند كل تشريع، وستجد أن خطاب الحق تعالى في ذلك لأولي الألباب خاصة لا لعموم الناس.

فأولو الألباب هم الذين يقفون عند مقصد الحق تعالى من كل حكم وشرع وأمر ونهي.. أما علماء الرسوم فيتباكون على زمن تعطلت فيه فريضة الجهاد! وبأن المسلمين تقاعسوا عن فضيلتها وأفضليتها، بل يرددون مقالة جرت على ألسن شائعي الإسلام بأن الإسلام انتشر بقوة السيف وأن المسلمين– من مقام سماحة الإسلام– كانوا يخيرون الناس بين ثلاث: الإسلام أو الجزية أو السيف! وكيف جعل الإسلام السيف آخر الخيارات!

للحق– يا أستاذ عقل!– فتلك مقولة باطل خلط فيها بين خلق الإسلام ومطامع حكام رجحوا مطامعهم على قصد الحق تعالى من القتال، فإن الناظر في تاريخ الإسلام في عصر النبوة لن يرصد واقعة واحدة كان المسلمون فيها بادئين بالعدوان!.. لقد كان النبي عليه وآله السلام يدعو على رعل وذكوان

وعصية وغيرهما من قبائل العرب، لغدرهم حين أمنهم النبي، حتى نزل من القرآن آية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) فكف عليه السلام عن الدعاء عليهم.

وفي مجد المنتصر حين فتح مكة- وكان الداعي لذلك هو نقض قريش لصلح الحديبية- وفي قوة لم تعهدها قريش كانت جحافل المسلمين عشرة آلاف فارس، دخلها النبي وهو مطاطئ الرأس على راحلته!، وقد أحلها الله للنبي ساعة!، فلم يكن الاستحلال إهراقاً للدماء بل كان نداء المسالمة والأمان "من دخل بيته فهو آمن"!، ثم حين أمكنه الله من صناديد قريش وأئمة الكفر والطغاة، وكان منهم من كان عليه السلام قد أهدر دمه، فكان سؤاله لمعشر قريش "ماذا تظنون أني فاعل بكم؟!" فكانت شهادة أعدائه هو ما عهدوه فيه: "أخ كريم وابن أخ كريم" وكان عموم العفو: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

قاطعت السيد فكري قائلاً: ولكن كيف تكون الفتوحات دون جهاد وقتال؟!

فأجابني بحسم:

- لابد أن تعلم أن الجهاد لم يفرض لرواء ظمأ المسلمين من الدماء! المقصد هو الدعوة إلى رسالة الله ونشرها إلى المحجوبين عنها، (فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ واللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) فإن غاية الرسل هي البلاغ (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ) أما هدايتهم فليس عليك هداهم، فقضية العقائد قد حسمها القرآن العزيز (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ).

.. وأية فتوحات تقصد- يا أستاذ عقيل- مصر والشام والأندلس وممالك فارس والروم؟!.. لم يأمر بهذا نبي الإسلام ولا دعا إليه، فإن غزوة تبوك كانت لردأ تهديد الغساسنة للمسلمين، وقد كان المسلمون في حال خوف وخشية من أن

يطبقوا عليهم بين التو واللحظة!.. ها هو بن الخطاب يسأل من يطرق بابه بقوة قبل أن ينبئه بخبر عظيم: أو جاءت غسان؟! قال الطارق: لا بل طلق النبي نساءه!.. إن قول الله "وأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ" مقصده " تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وعَدُوَّكُمْ" وليست مسوغاً للاعتداء.

أما من استساغ منها الاعتداء.. فليقف على نهي الحق تعالى "ولا تعتدوا" فإن لم ينهه النهي! فليقف على بقية الآية" إن الله لا يحب المعتدين"

قلت للسيد فكري:

– ولكن بين أيدينا حديث النبي الأعظم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله.."؟!

– هذا خاص بالرسول وبأن يقاتل معه من معه، فإنه لما كان المطلب من الرسل أن يبلغوا ما أنزل إليهم من ربهم، فيكون من شأن النبي أن يلبي أمر الله.

– فإن لم يفعل فما بلغ رسالة– فإن منعه مانع من الإبلاغ ولا يكون المنع إلا بقتال، وجب عليه ألا يستكين لمن يصده ووجب عليه قتال بقتال، فأُمر حينذاك!

– ثم كان إرث الأمة أن يكون فيها دعاة لقوله عليه السلام "بلغوا عني ولو آية" ولم يطالبنا بقتال للبلاغ، وحسبنا وسائل الإعلام ونوافذها العديدة للإبلاغ، ودع عنك ناعي السيف وناعي الجهاد!

كان حوارنا مع السيد فكري في مقهى الدراويش، لاحظت أن السيد فكري عاشق للقهوة التركية والتدخين! وقد عن لي أن أسأله مراراً عن التدخين فلا أجد في نفسي جرأة، غير أني استجمعت شجاعتي حين قطع حديثه ليضع بعضا من الجمر أعلى النرجيلة:

– عفواً يا أستاذ فكري! أليس التدخين حراماً؟!

أجابني بهدوء: ومن الذي حرمه؟!

– حرمه السيد المفتي!

– بل قل أفتي بتحريمه!.. أما التحريم فليس إلا للمشرع: الله ورسوله، وليزنا لذلك نص! ولا نص في الدخان والتدخين! غاية الأمر قياس– بقريب أم بعيد– يحتمل الصواب والخطأ! وهو غير ملزم إلا لصاحبه! أما سمعت ذلك في خطبة العارف عن واقع الأمة!

– ألست معي أن التدخين ضار بصحة الإنسان!

– قد يكون الأمر كما قلت! وكذلك عوادم السيارات ومخلفات المصانع! وحرائق النفايات!.. ويضر بصحتك أيضاً أن تأكل خروفاً وحدك!، والأصل حلال.. ولكن قل لي يا عقيل هل الخمر ضار بالصحة؟!

– الخمر حرام!

– لم أسألك عن التحريم بل عن الضرر!

– يقول الأطباء أنها تسبب أمراض القلب والكبد.

– ولكنها كانت مباحة في كل العصور ولم يتعرض لتحريمها دين سماوي، كانت مباحة سبع عشرة سنة في ظل الإسلام، وفي وقت الوحي، كانت مباحة

من مقام بل الإنسان على نفسه بصيرة!، ترى ألم يكن هناك ضرر على صحة الإنسان وقت إباحتها؟!

– بل كان الضرر مستمرا!

– رغم ذلك لم يحرمها المشرع لعله الضرر.. فما هي علة التحريم..؟!

– وقوع السكر!

– لا.. ليس السكر علة التحريم! فإن ما يسكر الكثير منه فقليله– الذي لا يقع منه سكر– حرام!

– فما إذن هي علة التحريم؟!

– الطاعة! بين الأمر والنهي.. افعل.. ولا تفعل! والذي عليك:

"... أطيعوا الله وأطيعوا الرسول" وكون المشرع لم يتعرض لذكر علة التحريم فأي مستنبط وأي معلل قد يصيب وقد يخطئ، وليس علينا إلا الإتباع، فها هو عمر بن الخطاب من مقام الإيمان يقبل حجراً لا ينفع ولا يضر علي حد قوله!.. لماذا لقول النبي عليه وآله السلام "خذوا عني مناسككم" فنحن نقبل الحجر ونرجم الشيطان لكونه عليه السلام فعل ذلك. فإن أسلمنا لفعل النبي، علمنا بنفع الحجر حين يأتي شهيداً يوم القيامة يشفع لمن قبله أو أشار إليه! وسواء علمنا أم لم نعلم ليس لنا إلا الإتباع.

– أستاذ فكري.. لم تجب على سؤالي.. التدخين حلال أم حرام..؟!

– سؤلك سيكون وجيهاً لو أضفت إليه: أم مكروه؟!.. وأقول لك لا نص بالتحريم أو الكراهة!

– وما قولك في نص "ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"؟!

– أو نزلت في التدخين؟! وهل في قليلة أم في كثيرة؟!

– بهتني يا أستاذ فكري!

أنشد الشيخ العارف:

مشمولة لولا التقي لعجبت من ... تحرمها والذنب للقدماء

قربوا الصلاة وهم سكارى بعدما ... نزل الكتاب بحكمة وجلاء

– هذا في الخمر يا شيخ عارف، فماذا يقصد حافظ إبراهيم بذنب القدماء؟!

– يشير إلى سبب التحريم، وذلك أن الله كان قد نهى المؤمنين عن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، فلما لم ينته بعضهم عن ذلك حرمها الله أبداً تغليظاً للعقوبة.

قلت بمرح:

– ليتهم أطاعوا الله!

– كنت رغم ذلك لن تقربها يا أستاذ عقيل!.. فهي تخرج المرء عن وقاره! وقد كان الحكماء والعقلاء يتنزهون عن مقاربتها وقت السكوت عنها!

جاءنا صوت المذياع- في مقهى الدراويش- وهو يذيع مقطوعة غنائية:

عواد باع أرضه ... يا ولاد

شوفوا طوله وعرضه ... يا ولاد

يا ولاد غنوا له ... يا ولاد

قطع كلام السيد فكري عبد الحق وهو يعلق قائلاً:

- طرب قديم! أوبربت إذاعي في مطلع الخمسينات من القرن العشرين! يذكرني دائماً بالقضية الفلسطينية!

قال الشيخ العارف:- في كلمات الغناء إشارات وتلميحات تكاد تكون تصريحات.

لم أفهم ما يقصده العارف غير أني أردت الخروج عن دسامة الحديث..

- طرب قديم!.. راحت خلاص أيام السبت!

ثم استفقت وكأني بالفعل غابت عني عبارة السيد فكري! فاستدركت أسأله:

- وما علاقة الأغنية بالقضية الفلسطينية؟!

- أما سمعت قول العارف تواً أن في كلماتها تلميحات! بل تصريحات، هذا تاريخ قد عايشته بحكم عمري، فالأوبربت يحكي كيف أغرى المال عواد فباع أرضه وقبض الثمن، وسرعان ما تبخر المال وأنقلب الحال فعاد عواد يطوف حول سابق أرضه وسط زنة أبناء القرية، يغنون له ويرمونه بالحجارة، يبعدونه

كي لا يدنس قربتهم، فالعرف في القرية الأرض عرض! لا يمس ولا يباع! فلما خالف عواد العرف كان من شأن التغني.

تدخل الشيخ العارف مستكملاً:

– لا مفر من واقع وإن كان مخزياً!، إلا أنه حدث بالفعل! فقد اشترى اليهود أجود الأراضي الفلسطينية وأكثرها قداسة!، وسال لعاب الفلسطينيين وزاغ البصر لبريق الذهب وطرب السمع لحديث المال، فزايدوا في الأسعار! وقبل اليهود فانعقد البيع!

ابتسم السيد فكري معلقاً:

– هذا هو لب القضية وحديث الواقعية! حدثنا به يا شيخ شاهد يا عارف!

العارف: عاد الفلسطنيون يطوفون حول الأرض المباعة كشأن عواد!

مرددين: أنها مؤامرة صهيونية! ونصبوا خيامهم حول سابق أرضهم ولكن المالك الجديد رفض جوارهم، فأخذوا يبكون لمن جاورهم لم يكن بكاؤهم ندماً، بل استجداء واستثارة لإخوانهم في البلدان المحيطة!

فكري عبد الحق:

– وما أكثر الطيبين في بلداننا!

العارف:

– تعاطفوا مع العوادين! فرأوهم على كل حال إخوانا، ونصرة الأخ واجب، ظالماً كان أو مظلوماً.. فمهدوا للحروب بالخطابة في مواهبها وملكاتها، فلا جرم

أنهم سيقضون على اليهود بسيف عنترة وجواده الأدهم! بل لن يستغرق الأمر نصف نهار!، فأولوا للحرب ونحروا الذبائح، ولم يفيقوا إلا على هزيمة موجعة.

فكري عبد الحق:

– عزوها إلى سيوف عنترة الفاسدة.. التي لم تعد صالحة لهذا الزمان!

العارف:

– واتهم الأخوان بعضهم البعض بالخيانة! وآه لو كانت لهذا الزعامة!.. بل آه لو كانت لذاك!، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت قضية فلسطين قميص عثمان يتوشحه كل من أراد مُلكاً أو زعامة!.. والعوادون– بائعوا الأرض– لا يفتأون عن الترنيم بربابة ويتغنون بشجن مشكوك فيه: واقدساه!!

فكري: وما أكثر الطيبين في بلداننا!

العارف: تعاطفوا معهم وأووهم وأغدقوا عليهم الهبات والصدقات، وتوالت الحروب حتى كانت النكسة التي سقطت فيها قلنسوة الزعيم المتشح بقميص عثمان بل ضاعت أرض المصريين والسوريين وبقية الأرض التي لم تبع من فلسطين وزادت خيام اللاجئين!

فكري عبد الحق:

– جلسنا نلعق الجراح، ونتسائل في غرابة: كيف نهزم ونحن الجمع العظيم؟! وعدونا شرذمة لا تملأ عين الناظرين!

العارف:

– ويظهر زعيم عنتري المقال من فريق العوادين! يعلن في شمم!! ثورة حتى النصر.."!! واتخذ من الفتح شعاراً ولكن يعوز فقط المال! فقط المال! وسيحارب حتى آخر جندي مصري وسوري!!

فكري: وما أكثر الطيبين في بلداننا!

العارف: أغدقوا عليه المال حتى أصيب العوادون بتخمة في الأرصدة البنكية! وما أجمل المال من وطن يباع- عند من يتخذه غاية- كل شيء، فلا مبدأ إلا جمعه ومن لا يدفع فذلك هو الخائن والزنديق الذي لا تهز مشاعره المقدسات المدنسة!.. تفرق العوادون في الأراضي العربية ففيها متسع ومأوى، وأصبحت كلمة السر لجمع المال شعاراً مقدساً يمس العواطف ويدغدغها: تحرير بيت المقدس فريضة على كل مسلم"!!

فكري: وما أكثر الطيبين في بلداننا!

العارف: أما الواقعيون فخشوا أن يضاف إلى شعار التحرير عبارة "حديث شريف"! بل وجدوا الشعار ناقصاً والأولى أن يكتب هكذا: تحرير بيت المقدس فريضة على كل مسلم غير عوادى!

استمعت لهذا الحوار ولم أجد فرصة تعليق، إلا أنني رددت في نفسي.

- وما أكثر الطيبين في بلداننا!

ثم تساءلت بمرح: هذه الجلسة دين أم سياسة!

أجابني السيد فكري:

- إن أردتها دين فأنت كمسلم ماذا يهمك من الأمر؟!

- يهمني ألا يمنعني مانع حين أنشد شد الرحال لبيت المقدس، وألا يتولى شئون المسلمين غيرهم؟!

فكري: .. أبوك مرحوم!، فزبد ليس بأفضل من عمرو!، فزبد (اليهود) يدنس مقدسات المسلمين من ناحية، وفي الجانب الآخر عمرو (الفلسطينيين) حين يبدأ في ممارسة سلطاته بأريحيا يبنى كازينو للهو والقمار!

الشيخ العارف:

– ليكون كازينو أريحيا بوابة العبور للقدس الشرقية!

فكري:

– نربد الدين!.. الحقائق أساس الدين، أما السياسة فخليط بين الحقائق والأكاذيب! ومن يجيد موازين الخلط فهو الأدهى!.. تربد الدين يا عقيل! إذن ادفع عنك العصبية الدينية المجردة عن الحق، فالتمسك بالحقائق هو العصبية الواجبة التي يقرها ويدعو لها كل دين سماوي واستمع:

بيت المقدس عند المسلمين له في النفوس قداسة، فهو أولى القبلتين وذلك الحرمين، يقصده ويشد الرحال إليه من ينشد اقتفاء مسرى النبي العربي عليه وآله السلام، وقد حث عليه السلام إلى الحج إليه بحديث "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..".

وبيت المقدس عند النصارى له في النفوس قداسة فهو أرض ميلاد المسيح عليه السلام، وعنده كانت دعوته، ومن حوله ساح معه الحواريون فما ؟؟؟؟؟ يغترب عنه حتى يعود إليه، على تلك الربوة قال حديثاً، وفي ذلك السهل ؟؟؟؟؟ مريضاً وأحيا ميتاً.

وبيت المقدس عند اليهود أرض الوعد لإبراهيم عليه السلام، ومملكة خليفة الله داود، وبيت الله بناه سليمان، قبلة بني إسرائيل يحجون إليه ويقبرون عنده.. أرض كتبها الله لهم! بشهادة القرآن العزيز!.

كنت مصغياً بكل حواسي للسيد فكري إلا أني وجدتني أقاطعه:

– كيف شهادة القرآن؟!

– على لسان نبي الله موسى قرآن نتعبد بتلاوته (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ).

– والله لكأني بنفسي لم أسمع بها! رغم أني ختمت القرآن مرات!.. أكمل يا أستاذ فكري!

– نعود لذاكرة التاريخ ليحكم لنا أو علينا!.. فمنذ قرابة أربعة آلاف سنة فائتة كانت أرض القدس هي التي هاجر إليها إبراهيم عليه السلام حين قال إني مهاجر إلى ربي، واتخذها موطنا يعيش فيه وعشيرته، في جوار سكان البوادي من الكنعانيين، وأسس إبراهيم مبدأ– من المهم أن نلتفت إليه– وهو أنه حين أراد حفر بئر رجع إلى كبير القوم من الكنعانيين يستأذنه في ذلك، فسمح له فقد وجد في جوار إبراهيم أنساً، إلا أن إبراهيم أراد دفع ثمن البئر!، وشيخ الكنعانيين يتأبى تكرماً، ثم قبل بالثمن تحت إصرار إبراهيم، وكان الثمن سبع بقرات، وسمى البئر ببئر سبع، فكان المسمى بمثابة عقد بيع مشهر!.. وحين ماتت سارة زوج إبراهيم ذهب ليسأل شيخ الكنعانيين أن يحفر قبرا فسمح له، فسأله إبراهيم أن يدفع ثمن المقبرة، ويأبى الشيخ تكرماً، ويصر إبراهيم، فكان مبدأ سجله إبراهيم في سجل التاريخ.

قاطعته ثانية وأنا أسأله:

– ماذا تقصد من مبدأ إبراهيم عليه السلام؟!

– قدسية دفن الموتى في تلك الأرض فتصبح قلوب الأبناء متعلقة بتلك القبلة أينما رحلوا بل الأولى أن يقيموا فيها، فالماء عنصر الحياة والقبر عنصر الموت والاثنان مدفوع ثمنهما! فإن ضاقت بهم الأرض حيثما رحلوا فالمرجع حيث ؟؟؟؟؟؟؟

ثم أردف السيد فكري مستكملاً:

– في هذه الأرض كان وعد الله لإبراهيم عليه السلام حين قال له "واسكن الأرض التي باركنا فيها" ووعده بذرية تملأ طباق الأرض.. رحل إبراهيم إلى جوار ربه، وعاش في تلك الأرض إسحاق وبنوه حتى كان من أمر يوسف بن يعقوب عليهما السلام وذهابه إلى مصر، وإحضار أبويه وإخوته للحياة في رغد العيش في أرض مصر، وحين حضر يعقوب الموت ارتحل إلى أرض الآباء المباركة ليقبر هناك ابتاعاً لمبدأ إبراهيم.

ومن بعده صار بنو إسرائيل فريقاً يعيش في أرض الميعاد والكثير يعيشون في مصر في ظلال الحكام والقصور، وكان من أمر بني إسرائيل ؟؟؟؟؟ العقائدية دون مخالطة المصريين في عقائدهم، ونجد ذلك في قول يوسف عليه السلام: "إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"– يقصد المصريين– "واتبعت ملة آبائي..".

... وطالت إقامة اليهود بمصر ما ينيف على أربعة قرون من الزمان، وكان من شأن الاضطهاد لليهود وتسخيرهم حتى مبعث موسى عليه السلام وخروجهم من مصر عبر سيناء يقصدون أرض الآباء، ثم تخوفهم من الدخول تلك الأرض، فحين ارتحلوا منها إلى أرض مصر كانوا قلة معدودة، ثم أضحوا

خلقا عظيماً يربو على ستمائة ألف، جادلوا نبي الله موسى وهو يدعوهم "يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ....."، وطال الجدل والتردد أربعين سنة يعيشون في تيه اتخاذ قرار، حتى دخلوها مقاتلين بصحبة نبي الله يوشع بن نون الذي توقفت له الشمس عن مغرها حتى تمكن من القضاء على الكنعانيين، وعاش اليهود ثانية في تلك الأرض المقدسة، دون مخالطة باقي السكان من غير اليهود، بل أطلقوا على باقي الكنعانيين اسم الفلس طين للتحقير، وحددوا لكل ما عداهم مناطق قاحلة للسكني، أطلقوا عليها اسم السامرة نسبة إلى السامري الذي صنع العجل ونبذه موسى ومنع مخالطته.

.. ومع الوقت تجدد القتال وعادت الحروب بين الفلسطينيين واليهود، حتى كان من أمر طالوت ومن بعده أنشأ داود مملكته واستخلفه الله في الأرض حكماً وملكاً، فسأل الله تعالى أن يبني بيت المقدس، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنيه، وورث سليمان داود وبنى بيت المقدس كآية من آيات الإبداع، وشارك في البناء خلائق الله من إنس وجن ووحش وطير، كل مسخر لسليمان، ثم كان من أمر الحروب وهدم الهيكل على يد نبو خذنصر، ثم إعادة بنائه من جديد في عصر لاحق، وهو ما نجده في السرد القرآني من سورة بني إسرائيل.. حتى مبعث المسيح ابن مريم عليه السلام.

واستمر السيد فكري مستكملاً حديثه:

– ونقف مع أنبياء بني إسرائيل نسائل عن رسائلهم ونبوءاتهم كانت لمن؟! كانت لبني إسرائيل خاصة لا لعموم الناس، بل كان عموم الناس في نظرهم دونهم مكانة عند الله، وكانوا يتطهرون من مجرد ملامستهم.

كان السيد المسيح رسولاً لبني إسرائيل، فاتهموه وأخذوا عليه مخالطته السامريين، وكسر السبت ونسخ في شرائع موسى فلم يطيقوا ذلك وطلبوا قتله، ومن بعده كان من شأن الحواريين نشر الدين في شتى بقاع الأرض ولكل الناس — أما بنو إسرائيل فهم- آنذاك- كعهدهم بين الإحسان والإساءة، وبين شتات وترحال، إلا أن عيونهم وقلوبهم في توجه دائم إلى أرض آبائهم وقدسية دفن موتاهم بها.

دخل الإسلام إلى أرض المقدس، فقد كانت الدولة الرومانية في نهاية عهدها، ولم تكن الأرض المقدسة مطمعاً لأحد، فليس فيها ما يغري سوى قدسية تلك الأرض ومكانتها في نفوس أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإقرار الإسلام من بعد بتلك القدسية، فتعايش فيها الكثير من المسلمين وأسلم أكثر أهلها، في الوقت الذي كان فيه السواد الأعظم من اليهود في شتات ولا يربطهم بتلك الأرض سوى العلائق العقائدية والقلبية، حتى أجمعوا أمرهم على العودة وإقامة الهيكل السليماني من جديد.

ولما كان حكم الوقت للمسلمين الذين يمثلون غالبية السكان، كان خيار اليهود للعودة إما محاربة السكان كسابق عهدهم التاريخي، وإما التحايل السلمي لدخول، فكان من أمر المسالمة أن راودوا السكان من الفلسطينيين على بيع الأراضي والديار ووقع الفلسطنيون في شراك دهائهم، فقبل الكثيرون بيع الأراضي الخصبة والمقدسة، وانتقلوا إلى ما دونها من الأراضي القاحلة والمقفرة، وأصبح الأعظم اقتصادياً وامتلاكاً هو الأولى بالحكم وسن القوانين! وكان ذلك لليهود.

صحا المسلمون على أن البيع لم يكن عفوياً وفردياً، بل هو مر مدبر وشراك وقع فيه سكان الأرض المقدسة، ولكن البيع كان قد انعقد!!، وثارت الحمية العقائدية في نفوس المسلمين، وفي غمرة اختلافهم وتنافس الزعامة بينهم كانت هجرات اليهود قد ازدادت ليصبح الواقع أكثر صعوبة إن أراد المسلمون- حين يتفقون- تغييره!

صمت الأستاذ فكري شارداً، ثم نظر إلى باهتمام وأنا أعلق على ما تقدم من حديثه، قلت:

- لاشك أن خطأ المسلمين أنهم لم يكونوا على حذر من طباع اليهود وتآمرهم، ولم يتعلموا من التاريخ، فبعد انتصار صلاح الدين كان لابد أن لا يتكرر الأمر، كان الأولى أن يحرص المسلمون على مظهر القوة والسيادة في تلك الأرض، بل الحرص أيضاً على القوة العقائدية والانتمائية إلى الأرض المقدسة، كان الأولى محاربة النفاق والمنافقين من سكان الأرض المنتمين إلى الإسلام والمحسوبين على المسلمين، كان لابد من اختيار نوعية من الولاة على ولاياتهم يتقون الله حتى لا يتكرر حادث وإلى عكا. لم يتعلم المسلمون من التاريخ فكان الواقع الذي بين أيدينا، إما أن نرتضيه أو يفرض علينا أو نحاول إنقاذ ما يمكن.

علق الأستاذ فكري ضاحكاً:

- أبوك مرحوم! وما قولك يا شيخ شاهد؟!

الشيخ العارف:

- إن للعداء وإراقة الدماء بين اليهود والفلسطينيين تاريخاً قديماً لم يكن قبل الإسلام فحسب بل وقبل المسيحية، وليست القضية التي تهم المسلمين بل والمسيحيين هي من صاحب الحق ومن المغتصب، فتلك قضية السياسة والدول

والمصالح ولكن ما يهم المسلمين والمسيحيين هو ألا يمنعهم مانع من ارتياد مقدساتهم، وألا يشرف عليها غيرهم.

لاشك أن للمسلمين أحقية في مقدساتهم، ولا يملك أن يمنعهم دونها مانع ولكن إن باتت في أيدينا فإلى من نوكل الإشراف عليها؟! أندعها بين يدي بائعي المقدسات- من إخواننا- يتولونها ونكافئهم بعمارتها ورخائها؟! أم سنتخوف من أمر بيعها ثانية وقد ارتفعت أسعارها؟! أم ندع ولايتها لليهود- شانئي المسلمين-؟! أم نطالب بتدويلها ونجعل خيرة من المسلمين يخشون الله يتولونها؟! أم نترك الأمور لجربان الأقدار ونجلس في مساجدنا ندعو على الكفار!

قلت من فوري:

- لا نملك سوى التوجه إلى حكام المسلمين وحكمائهم نناشدهم بالله أن يجمعوا على أمر واحد يحسبهم لهم التاريخ ويلاقون به ربهم.

قال فكري عبد الحق: ها أنت عدت للسياسة.

قلت للسيد فكري: - أنا في حيرة من أمري! أليس اليهود أعداء الله؟!

فكري:- بل أحباء الله، وشعبه المختار!.. وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين.. ألم تقرأ قول الله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ).

قلت:- وأين قول الحق تعالى (وقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ...).. (وقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ..) ألا يحرك فيه ساكنا رؤية كفرهم يا سيد فكري؟!

فكري:- ليس الخبر عن مطلق اليهود بل بعضهم!

تحفزت وكأني صائد والسيد فكري فريسة قد قرب أسرها!

فقلت- بصوت يبدو فيه تهكم ظاهر-:

- من أين وصل لعلمك أن الخبر ليس للكل؟!

أجابني بثقة: من تأنيث الفعل (قال)!

- لا أفهم ما تعنيه؟!

فكري: أليس لفظ اليهود مذكراً؟!

- بلى!

فكري:- فالأولى في اللسان العربي تذكير الأفعال والضمائر الملحقة بها، أما التأنيث فيجوز لإفادة أو علة، فتأنيث الفعل (قال) يفيد التبعيض، أي قالت بعض اليهود: (طائفة- جماعة- أمه- فرقة) وحذفت الكلمة المضافة واكتفى بتأنيث الفعل وهذا درب يفهمه العرب يا أخ عقيل، بل يعدونه جوامع كلم... كقول الله تعالى (وقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ....) فتذكير الفعل هنا (قال) مع أن الاسم مؤنث يفيد في الخبر أن القول لم يكن قاصراً على النساء، بل شمل الرجال أيضاً فكان حديث المدينة! لهذا جاء السياق بتذكير الفعل.. فالقرآن جوامع كلم فلا إسهاب ولا إطناب، بل كلام موجز معجز!

– تقول عنهم شعب الله المختار! هكذا كان شأنهم!

فكري:– ومن الذي نسخ عنهم خلعة خلعها الله عليهم؟!.. بل حديث الله، إليهم وقانونه فيهم تجده في سورة بني إسرائيل (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا).

– يا أستاذ فكري ألم تقرأ قول الله في شأن اليهود (وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأَنتُمْ تَنظُرُونَ)، يطلبون أن يروا الله جهرة، أي ذنب أعظم وقد أهلكم الله بالصاعقة لجسامة طلبهم.

فكري:– ما هذا الذي تعقله من الآية الكريمة؟!.. ليس فيها من الطعام ما تقول!.. فما الذنب في طلب الرؤية، وقد طلبها من قبلهم نبيهم! وها هو نبينا الأعظم يقول "اللهم متعني بالنظر إلى وجهك الكريم" فلو كان في الرؤية ذنب لما طلبه موسى ولا محمد عليهما السلام!.. أما الإهلاك بالصعق فلم يكن من مقام عقوبة فقد صعق من قبلهم موسى عليه السلام.

– ولكن موسى لم يتحقق له مطلبه!

فكري:– بل كان الصعق دليل التحقيق!

قلت مندهشاً:– أتريد أن تقول إن موسى رأي ربه؟!

فكري:- السياق القرآني في ذلك يحتمل المعنى بتحقيق الرؤية.. هذا إن تدبرت الآيات وكنت عقلاً لا عقيلاً!

ضغطت على الحروف بانفعال وأنا أسأله:

- كيف وقد قال الله له (لن تراني)؟!!

فكري: استمع بعقلك يا عقيل.. حتى تستطيع صبراً!

الشيخ العارف:- ودعني أشاركك فأنا أدري بفهم صاحبي!

اعتدل السيد فكري متجها نحوي في جلسته وبدأ حديثه:

- لكل نبي دعوة دعاها أجابها ربه، فكان مطلب إبراهيم عليه السلام (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) وكان مطلب سليمان (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي).. وكان مطلب عزير- سؤالاً عن سر القدر- (....أَنَّ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) وكان مطلب زكريا- وقد بلغ من الكبر عتيا- (رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً).. وكان مطلب موسى (رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ).. وكان مطلب عيسى (اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ).. أما محمد صلى الله عليه وآله فادخر مطلبه لسؤال الشفاعة فما أكرمه من نبي.

الشيخ العارف:

- ولا يقدح مطلب الأنبياء سلام الله عليهم في مقاماتهم، ولا تنتقص مطالبهم من حظوظهم في عطاءات الآخرة.. بل سبقت أدعيتهم هداية الله وتوفيقه لهم، وإظهارا منه تعالى لرتبهم وتفاضلهم ودعوة لسائر البشر للتأمل والتأسي.. ولا

نملك تقيم الأنبياء ولا نقدهم- مهما بلغنا من رتبة في العلوم والمعارف- فكيف نحكم على مقامات ليس لنا فيها ارتقاء ومنتهانا فيها المذاق، بلا ارتواء؟!

فكري:- ليس لنا سوى إتباع ما أخبرنا الله بشأنهم وما أنبأنا به الرسول (ص) عن قصصهم وأحوالهم.. ومع هدى الله تعالى في كتابه العزيز آيات تدعونا للتدبر والتبصر والتساؤل:

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) الأعراف- الآية ١٤٣.

واستمر السيد فكري في حديثه:

ذهب من ذهب إلى أن مطلب موسى عليه السلام رؤية ربه كان تجاوزٌ من مقام مباسطة!.. وأنه لم يجب إلى مطلبه.. بل ذهب فريق إلى أن صاعقة موسى كانت مؤخذة وعقابا على مطلبه، وأن موسى أعلن توبة وإنابة على تجاوز!!.. وحاشه عليه السلام تجاوزٌ.. فرؤية الحق تعالى محققة بما نصت عليه نصوص القرآن والأحاديث، ومقامها الدار الآخرة لقول الحق تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) فما هو التجاوز الموسوى في مطلب أخروى من مقام الدنيا؟!

أما عن تحقق الرؤية لموسى فقد ذهب الكثيرون إلى عدم وقوعها، وقوفاً مع قوله تعالى: (لَن تَرَانِي) ولشرط المقام الأخروي للرؤية، لقول النبي

(ص)، لن تروا الله حتى تموتوا".. فأما شرط المقام الأخروي للرؤية فقد تحقق لموسى من جراء الصعق وندركه من حديث النبي (ص)" أنا أول من تشق عنه الأرض فأجد موسى قابضا على ساق العرش فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور"، فنفهم من ذلك أن صاعقة موسى كانت أخروية.

استأنف السيد فكري قائلاً:

أما قوله تعالى (لَن تَرَانِي) فنقول لو انتهى كلام الحق ههنا لفهم عدم إجابة موسى لمطلبه، ولكن كلام الحق مستأنف بقوله تعالى (ولكن).. ثم بقية الآية التي يفهم منها صراحة برؤية الجبل ربه، ومعلوم أن الجبل ليس أكرم من موسى عند ربه، فدك الجبل قد أبان لموسى ما يحدثه التجلي، وقد وقع لموسى عين ما وقع للجبل، فالصاعقة هي مرادف: الموت، المحو، الفناء.

فكأن الحق تعالى يقول لموسى لن تراني كما تظن من شأن الرؤية- مع وجودك وثباتك- ولكن سأريك كيف يكون من شأن الرؤية، فأحاله للجبل فإن استقر مع وقوع التجلي فسترني حال ثباتك، ولكن إذا دك الجبل فستعلم أن هذا من أثر رؤيتي، فإن وقع لك ما وقع للجبل فاعلم أنك رأيتني، فصعق موسى من تجلي الحق له، فإن رؤية الحق تعالى تفني الرائي عن إدراكاته، فإن وقع له إفاقة من فنائه فإنه لا يعي من أمر رؤيته شيئاً، فالصعق هو فناء وتلاشي لجسمانية موسى.

لذا جاء في الخبر المروي عن النبي (ص) "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر- وأشار للقمر ليلة تمامه- لا تضامون فيه".. أي لن تتلفكم ولن تصعقكم الرؤية.. فالرؤية تحققت لموسى مع عدم إدراكه بها من مقام

فكري:

- مطلب "ابن الفارض" في الرؤية فمن مقام الحيرة، وهو مقام محمدي! حيث أن النبي عليه السلام لما علم أن الأمر حيرة.. قال "اللهم زدني فيك حيرة".. وقد كان "بن الفارض" بحق سلطان العاشقين.

العارف: فصاح في سكرة عشقه:

زدني بفــرط الحــب فيــك تحــيرا　　　وارحــم حشــي بلظـى هـواك تسـعرا
وإذا ســــألتك أن أراك حقيقـــــة　　　فــاسمح ولا تجعـل جـوابي لــن تـرى

ويقول في موضع آخر:

آنســـــت في الحـــــي نـــــارا　　　لـــــيلا فبشـــــرت أهلـــــي
قلـــــت امكثـــــوا فلعلـــــى　　　أجـــــد هـــــداي لعلـــــى
حـــتى إذا مـــا تـــداني الميـــ　　　ـــقات في جمـــع شملـــي
صـــارت جبـــال ي دكـــا　　　مـــن هيبـــة المتجلـــي
وصـــرت موســـى زمـــاني　　　مـــذ صـــار بعضـــي كلـــي

فكري:

- أما من كشف حجب الفهوم عن رؤية موسى ربه فهو الشيخ الأكبر ابن عربي فصرح في به في أشعاره وقال في الفص الموسوي:

ولقد تجلى للذي قد جاء في طلب القبس
فرآه نارا وهو نور في الملوك وفي العسس
فإذا فهمت مقالتي فاعلم بأنك مقتبس
لو كان يطلب غير ذا لرآه فيه وما نكس

فهو يصرح بأن الرؤية قد تحققت لموسى عليه السلام، من مقام فناء وأن ربه قد جاءه في صورة مطلوبه، حتى لا ينصرف عنه فينصرف الله عنه.

كنار موسى رآها في عين حاجته
وهو الإله ولكن ليس يدريه!

العارف:

- والنار تناسب الفناء الذي عايشه موسى- من جراء الصعق- والفناء مجال للرؤية، أما قوله: وهو نور، فهو يعني الظاهر في الوجود، علوا وسفلا، فقال في الملوك وفي العسس.. ولو كان مطلب موسى عليه السلام أي شيء خلاف النار، لرأي الحق تعالى فيه، حتى لا ينكس إلى غير.. أما أن تعلم بأنك مقتبس فهو أن تدرك أنك واحد من مظهر ذلك النور.

فكري: الفناء في المحبوب مقام يغيب من هو فيه عن الإدراك والحس، وأشبه ذلك- مذاقاً- فناء نسوة يوسف اللائي قطعن أيديهن في مشاهدة الجمال، وأين كان إدراكهن بالألم..؟! فإن ما هن فيه من مشاهدة الجمال أعظم جذباً، فانجذبن بالكلية.

العارف:

– وكشان "رابعة" حين شج رأسها من جدار فأدماه فلم تأبه لذلك، فسألوها أما تجدين ألما؟! فقالت: شغلي بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما ترون.

نظر لي السيد فكري وكأنه يقصدني قائلاً:

– أما من ذهب إلى أن صاعقة موسى كانت من رؤية المتجلي عليه (الجبل) فقد فاته الوقوف على مذاقات المقامات وأحوالها.

للحق يراودني إحساس متناقض نحو السيد فكري، فأنا بين ميلي إلى منطقه وفكره وفي جانب آخر في نفسي حافز للمعارضة.. حاولت أن أتخيل نفسي مسائلاً:

ماذا لو ذكرت للسيد فكري حقيقة مشاعري نحوه.. وما أن أتممت ذلك الخاطر في نفسي حتى بادرني السيد فكري وكأنه كان يقرأ ما أفكر فيه بدقه!

– "المؤمن مرآة أخيه"... هذا حديث شريف يا أستاذ عقيل!، فما تراه في أخيك هو أنت! وليس أخاك!

قلت له:

– كنت أفهم هذا الحديث بمعنى أن المؤمن– من مقام معايشته لأخيه– هو أدري الناس به فما يراه في أخيه من وصف وسمة يكون صادقاً فيه.

فكري:

– مفهومك هذا يصلح لو قيل: المؤمن عين لأخيه.. أما المرآة فلا ترى فيها إلا نفسك.. أما بشآني فاتخذني بابا عابراً!.. خذ من النخلة الثمار والحطب للنار!

– لا أفهم ما تعنيه بدقة عن النخلة والحطب!

– إن كان يثمر فيك ما أطرحه فاتخذه سبيلاً!.. أما عني فاتخذني كالحطب قد يؤول إلى النار!

تدخل الشيخ العارف في الحديث قائلاً:

الدليل يدل به!.. فتصل به إلى حقيقة المطلوب، فإن وصلت فلا وقوف إلا مع الحقيقة.. أما الدليل فقد كان صاحبا قبل الوصول!

انظر قول بن عطاء الله السكندري: لا ترحل من كون إلى كون فتكون حمار الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه! ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون (وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى).

قلت:

– فهمت! عند سدرة المنتهى وقف جبريل ليقول لمحمد ها أنت وربك! فارتحل عنه إلى حقيقة مطلبه.

رد فكري والعارف في توقيت واحد: أبوك مرحوم!

ثم أردف العارف: ولكن لم يغب عن النبي الأكرم أن يوفي جبريل حقه فقال له: "أهنا يترك الخليل خليله"؟!

دار هذا الحوار عند دعوتنا لحضور مؤتمر صحفي عقد للشيخ ابن عربي قبل مغادرته مبنى المعراج بحلوان حيث آلة الزمن! كان الناس في حيرة من أمر "ابن عربي" بعد توليه الدفاع عن فرعون.

كانت محاكمة فرعون مثاراً للحديث والدهشة والجدل.. وكأن القرن الحادي والعشرين يعلن عن إثارات ومفاجآت.

كثر التعليق على المحاكمة، وحول شخصية "ابن عربي"، وحول فرعون.. وكان من أغرب التعليقات الفورية، هو ما جاء بالإعلام الناطق باللغة العبرية!.. والذي وجد مناخاً مناسباً، وفرصة متاحة للمطالبة بتعويضات عن ضحايا فرعون من اليهود.. بين من يطالب باستقطاع تلك التعويضات من الآثار والكنوز المصرية، ومن يطالب بتدويل الأهرامات!.. ومن يطالب بالتحفظ على فرعون ليدلهم على الموقع الذي خُسف فيه "قارون" بأمواله وكنوزه فهم أحق بإرثه!، لينقبوا عنها.. ولا مانع بعد ذلك من إعطاء فرعون صك غفران!

بل وانعقد بالفعل اجتماع للكنيست الإسرائيلي- على عجل- لبحث ذلك واتخاذ قرارات وتوصيات، وتم فتح القنوات مع مؤتمر مماثل للمنظمات الصهيونية للتباحث والمداولة!

أما الشيخ "ابن عربي" فقد جذب الأضواء، وانهالت عليه الأسئلة والاستفسارات من وكالات الأنباء ومحرري الصحف:

- لماذا دافعت عن فرعون؟!
- متى يظهر المهدي؟!
- متى نزول السيد المسيح؟!
- هل حقاً قلت بأن جسد المرأة ليس عورة؟!
- كيف تسنى لك أن تؤلف أربعمائة كتاب ورسالة؟!
- هل أنت تدين بجميع الأديان؟!
- لماذا غموض أسلوبك في طرح القضايا والآراء في كتاباتك؟!
- قمت بتفسير القرآن ثلاث مرات! فأيهما تفضل؟!
- نذكر لك دفاعك عن الحلاج والبسطامي، وتبرئتهما، فهل أنت متخصص في القضايا المعقدة؟!
- هل بلغك أنك متهم بالكفر والزندقة؟! وما تقول في ذلك؟!
- هل أنت شيعي، أم سني، أم صوفي، أم سلفي، أم كله؟!

– هل كان حقاً يوحي إليك في كتاباتك؟!

– ما الذي تعنيه من وحدة الوجود؟!.. ما رأيك في أحمد شوقي وابن باز، والشيخ الشعراوي، ومصطفى محمود؟!

– من هي الفرقة الناجية؟!

– هل عندك معلومات عن الساعة؟!

كانت الأسئلة كالسيل العارم!.. والشيخ "ابن عربي" باسم الوجه، غير ملتفت يتمتم بشفتيه ويحرك بأصابعه حبات مسبحته.. كان ذلك أثناء تحرك الشيخ، وفرعون من قاعة المحكمة وسط صفوف من رجال الأمن والشرطة، وكانت هناك فسحة من الوقت، قبل أن تكون آلة الزمن مهيأة لإعادة المستدعيين من عالم البرزخ، وفي مركز العلوم بمبنى المعراج– حيث توجد آلة الزمن– كانت هناك قاعة مُعدة لعقد مؤتمر صحفي.

كانت القاعة المعدة للمؤتمر تعج بالحضور، الذين قدموا من كل أنحاء العالم ليشاركوا في هذا الحدث الغريب.. وكان كل شيء مرتبا بعناية.. الإضاءة والكاميرات والصوتيات.. وحضر لفيف من رجال الدين.. المشايخ الرسميين، والمفكرين، ومشايخ الطرق الصوفية، وأصحاب المذاهب من الشيعة، والدروز والسلفيين، والعلويين، والبهائيين، والبهرة، وأساتذة الفلسفة، والمهتمين بالآثار وعلماء التاريخ، فضلاً عن ممثلي وكالات الأنباء وبعض الشخصيات السياسية.

تم تجميع الأسئلة المقترحة لدمجها وتحديد المتشابه منها، ومن سيلقيها.. وتم الاتفاق على توجيه الأسئلة إلى فرعون أولاً واستبقاء الشيخ "ابن عربي" لمناقشته ومحاورته، لكثرة الموضوعات الشائكة المطلوب إيضاحها، حيث كان صعبا تحديد زمن محدد للإجابات على الأسئلة.

– نص حديث فرعون–

– ما قولك في المتشككين في إيمانك؟!

يقول فرعون:

– حقد!.. الحمد لله أنه لم يجعل رحمته في أيدي الناس.. وإلا كان الأمر مصيبة!.

– لماذا قمت بقتل السحرة، رغم علمك بمصداقية إيمانهم؟!.. وهل كنت تعتقد فعلاً.. أن موسى كان كبيرهم الذي علمهم السحر؟!

يقول فرعون:

– للحق.. كنت متشككاً في موسى قبل لقاء السحرة، ولكن حين وقع التحدي وانتصر موسى، بدا أمام عيني عرشي، وخفت من تصدع كرسي الحُكم!

.. أنت لا تدري ما هي السُلطة، وما هي شهوة الحكم كنت أسير تلك الشهوة الجامحة الجارفة، فلم أجد مفراً للدفاع عن مكانتي سوى إضلال شعبي بمقولتي: بأن موسى كبيرهم الذي علمهم السحر.. وقام وزيري "هامان" بفكرة شيطانية!.. حيث أوعز إلى أجهزة الاستخبارات بترويج وإشاعة مقولة اكتشاف مؤامرة اتفاق ومكر بين موسى والسحرة، في اجتماع سري جرى بينهم عند أطراف المدينة.

وعساك تُصدقني إذا قلت لك أني كنت أعتصر آلام اقتراف الذنب في قتل وصلب السحرة.. ولكني كنت بسبيل فعل أي شيء إلا أن يهتز عرشي.

– وهل وجدت ألماً وعذاباً في الغرق؟!

يقول فرعون:

– أجارك الله!.. أي ألم وأي عذاب!.. كأنه الدهور والأحقاب!.. ولكني على كل حال علمت أن هذا العذاب شمل عذاب الآخرة.. الحمد لله خلصت بدري.

– السيد فرعون!.. حدثنا بصدق، كيف كان إيمانك؟!

يقول فرعون:

– أما قولك: حدثنا بصدق فللحق أنا الآن في دار صدق!

... أما عن إيماني– باختصار– كنت علياً في الأرض، تجاوزت الحدود.. فلما رأيت الآيات، تحركت حقيقة الإيمان في قلبي، وفاضت حتى بلغت لساني ليترجمها، فوجدت لساني معقوداً بلجام لطين والأمواج.. فأدركت أن الأمر حتف موت، فاستطلعت صفحة السماء أستمد من الاسم المحي شهقة الحياة، فواجهني على صفحة الماء فارس بأجنحة عظيمة وفي ملامحه الجسارة والغضب.. والإصرار.. والعناد.. ظل يُلقمني الأمواج والرمال بلا هوادة!

.. أدركت حينذاك أني أحصد ثمار ما قدمت من سوء عمل، وتراءت لناظري صحيفتي، فلم أجد فيها إلا التكبر والفساد.. فخفق قلبي بشدة يستنفر الإيمان ويحل عقدة اللسان، ويجابه الأمواج.. وعبثاً كنت أحاول، ولكني مع ذلك لم أيأس!

ظللت أقاوم، حتى بدت لي بارقة أمل أخذت بناظري، حيث وجدت نوراً هابطاً سراعاً من السماء وكأني بعروس في ثيابها البيضاء، مرفلة بالنور والضياء، هابطة من أجلي! وهالني صوت عظيم مهيب، يملأ الفضاء قائلاً: دعه يا جبريل!

عرفت أن جبريل هو ذلك الفارس العنيد.. وما أن هم – جبريل- بالتوقف.. حتى فاض لساني سريعاً.. يترجم تباريح الإيمان في قلبي فقلت: "آمنت".. فتغشاني صوت الحق أسمعه بكل عضو مني ومن كل اتجاه، يتخللني ويرجني رجاً.. وكان الأمر عتاباً، لا أقول أخجلني بل قتلني آلاف المرات، وغصة مُرة في حلقي أجترها، وكأن الأمر مؤاخذة على ما قدمت من سوء، ومرارة من الحزن ندماً قاتلاً على تغريري واستخفافي بآلي.

..عايشت هذا الندم.. والألم العظيم.. ومر الوقت كأحقاب السنين! رأيت فيه مجالي الجبار.. والقهار.. وشديد البطش.. ولما بلغ الأمر أشُده، بدت لي وسط ضباب الألم تلك العروس المتزلة بالنور، فتغشاني صوت الرحمن: "اليوم ننجيك" هكذا قال!

انصرف عني الألم ووجدت نشوة الفرح، وكدت أضحك، لولا هيبة المقام وما يقتضيه من لزوم أدب!.

فجرت دموع الامتنان، ولم أجد في جميع اللغات واللهجات من عبارات الشكر والثناء، ما أُترجم به حالي، ولم أملك سوى سجود قلبي عرفاناً، فتجلت إلى تلك العروس مُشجعة.. فاستودعتها متسائلاً في سري: من تكون؟! فأجابت: أنا من عرائس الرحمن!

سجد قلبي ولم يقم من سجوده حتى الآن، وعلى ذلك قبضت روحي وفاضت إلى بارئها.

– كيف كان اختيارك لابن عربي للدفاع عنك؟!

يقول فرعون: تعرفت عليه في عالم البرزخ، رغم أنه قليل الكلام، وكأني به هو تلك العروس التي لا أفتأ أذكرها.. لسانه دائماً يتمتم بكلمات قلما يحيد عنه: الأول، الآخر، الظاهر، الباطن.. علمت أنه دافع عني، أو بمعنى أدق، أبان حقيقة إيماني!

– ما أمنيتك من عالم الدنيا؟!

يقول فرعون:

– انقطع عملي فيها، ولكن سجلي مفتوح!.. وفي انتظار واحد من أحفادي يحج عني! وحفدة صالحين يدعون لي ويرجون لي رحمة ربي.

– كيف ترى أخراك؟!

– الحمد لله.. بالنسبة للحشر، معلوم أنه يحشر المرء على ما مات عليه، وكفى بالكتاب شهيداً، وفيه نص إيماني قرآنا تتلوه أمة!

– هل توصي أحفادك بشيء؟!

– أحفادي غررت بهم!.. ولكن الآن– ودون تغرير– أقول لهم أحزنني تلوث النهر! إن كان النيل قد وهب مصر الوجود، فلا يكون هكذا العرفان!– وهناك ملوثات أخرى فيها غرقي!

وغاب فرعون مع آلة الزمن إلى عالمه.

أما حديث الشيخ "ابن عربي" فكان شيقاً مثيراً، بهر الجميع بعلومه وفنونه، وفهومه وكشوفه، فأجلى الخفايا وكشف الغطاء عن جواهر اللغة.. وبدد جهلاً وسذاجة فكر!.. وأفاض فأفاض، فشرب من شرب من عذب فهوم الحكمة

– فأفرد في التوحيد! وخاطب العقل من بداية منتهاه! وصاغ الحِكَمْ فتواجدت القلوب.

قال الشيخ الأكبر تعليقاً على دفاعه عن فرعون:

– لا أبغي من هذا العرض طلب الرحمة لفرعون وأمثاله من الطغاة، إنما المقصد هو الإشارة إلى سعة الرحمة الإلهية، وأنه لا حجر عليها، فإن القيد والتحديد من صفاتنا، وجل ربنا في صفاته عن القيد والحد، فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، وأن رحمته تعالى واجبة، لم يوجبها أحد عليه، بل أوجبها تعالى على نفسه (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ).

.. أما بشأن آل فرعون فلعل ترجيح قبول الإيمان ممن أضلهم، يزيدهم في عذابهم حسرات، فهي دعوة للمحكومين للعبرة واليقظة من الوقوع في استخفاف الجبارين المتكبرين من حكامهم، وأن (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)، وأنه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

قامت وكالة الاستفتاء المباشر، بعلم استفتاء على الشبكة (النت) عن شخصية بن عربي:

– كافر زنديق!

– الشيخ الأكبر وخاتم الولاية!

– ابصقوا عليه واضربوه بالنعال!

– سلموا على رأسه، وعلى يديه، وعطروا قدميه!

وصدر عن لجنة التصنيف بيان أعده السيد فكري عبد الحق كان عنوانه حكماً مسبقاً:

"ابن عربي.. عالم حجبناه!" وكان نص البيان:

الجيل المعاصر– ويشاركه من سبقه من أجيال– يتحمل تبعة حجب الأنظار عن مفكر يُعد من أعظم علماء المسلمين في دروب شتى، والذي دعاهم لحجبه أقوال ترددت عنه، فذهب بعضهم إلى تكفيره، وبعضهم إلى اتخاذه شيخاً أكبر!.. والفريقان أولهما: لم يقرأ كُتبه ومؤلفاته، ولم يقف على فكره ومذهبه وثانيهما: لا يقرأ كُتبه في الغالب، وإن أُذن له بذلك فيكون على يد شيخ عارف.. وقد يؤذن لمتطلع على علومه، قراءة مؤلفاته– عن تخصيص أو انفراد– دون حديث ولا سرد!

.. هو الشيخ الأكبر– فعلاً وواقعاً– أبو بكر بن محمد الحاتمي الطائي نسباً، المعروف بابن عربي، صاحب الفتوحات المكية.

أما الفريقان الذاهب إلى تكفيره، والمتخذه شيخاً أكبر، فكلاهما غالباً لم يجتمع له الوقوف على منهجه الذي أعلنه في كتابه "فصوص الحكم"، والذي مهد له بموسوعته الفريدة "الفتوحات المكية"، والذي لابد لمن أراد إدراكه– أعني الفصوص– من تلك الفتوحات كزاد للفهم، رغم صعوبة الفتوحات لمتتبع الحكمة المنشودة لأمر ما، لوجودها متفرقة في أبواب الفتوحات وفصولها وما أوسعها!.. كما يحتاج المتتبع لفكر "بن عربي" ومذهبه إلى الاطلاع على بعض كتبه ورسائله وأشعاره، للوقوف على عباراته وإشاراته ومراميه، وحتى يألف اصطلاحاته.

أما عن مؤلفاته فهي أربعمائة كتاب ورسالة! لرجل لم ينفق كل عمره في الفكر والتأليف، بل شُغل دهراً بما يشغل به العابدون من ضروب العبادات والمجاهدات والسياحة.. هذا من ناحية الكَم.

.. أما من ناحية الكيف المؤلف، فهو ليس سرداً وشروحاً بل عبارات تحوي من الصياغة اللغوية ما يحتاج لإدراكها الوقوف معها طويلاً تأملاً وتذوقاً.

.. لذا نقول بأن كلا الفريقين- المنكر عليه والمؤيد له- لم يجتمع له الوقوف على منهجه، وإنما ذهب المنكر إلى حُكْم شيخ فرقة إسلامية كبيرة!، فالإنكار على مذهب ابن عربي دون النظر إلى حيثيات الأحكام!، وذهب المؤيد له إلى الركون لرأي شيخ عارف دون عناء الاستذكار والمجاهدة في تتبع فكره، الذي لا يدرك إلا بعناء بالغ، وذلك لأن جانباً كبيراً من علومه لا تدرك إلا مذاقاً وشرحها قد يزيدها غموضاً!

أما أعظم الانكارات على "ابن عربي" ما قيل عنه إنه يقول بالحلول، وهو قول كاذب!، وشاطحات فهم غريب لمن فهم ذلك!، أو لعله هروب من مأزق الجهل بأسلوبه! فقد صرح ابن عربي حين عرض عقيدته- في الحق تعالى- على إخوانه ما نصه بالفتوحات المكية (تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها بل يقال "كان ولا شيء معه"، فإن القبل والبعد من صيغ لزمان الذي أبدعه!).. ولما كان المؤيد لا يرقى غالباً إلى استيعاب علومه، فكيف يرد على المنكر؟!

أما أشهر الانكارات على "ابن عربي" فهي مسألة جدلية، اختلف في فهمها الكثيرون فقد أثار "ابن عربي" قضية إيمان فرعون وإسلامه-

المنصوص عليه في القرآن العزيز- وأدخلها قفص الاتهام! ولكن جعل قضبان القفص حروف الاسم "الرحمن"!

أعني أنه بحث لفرعون عن مداخل للرحمة، فأبى الكثيرون أن تلحق الرحمة بفرعون، بل ذهب من ذهب إلى تكفير- وليس بتخطئة- من يقول بذلك، ومن ثَم رفض أي منطوق يصدر عنه! ووقف المؤيد لفكره مع قول النبي صلى الله عليه وآله "لا تظنن بكلمة برزت من امرئ مسلم سوء وأنت تجد لها من الخير محملاً، والبر المخرج لابن عربي هو علومه.

ولما كان المؤيد له يشفق أن يخوض فيها، فكيف بالمُنكر الذي سكن إلى إنكاره؟!

أما القائل بالتكفير فحكمه: القائل بتكفير عمرو هو مع عمرو في قفص الاتهام وحتماً يلحق لكُفر بأحدهما!.. هكذا كان حجاب "ابن عربي": غوغائية أصوات يداخلها الباطل وإن لبس ثوب حق، اجتمعت على الجهالة!

انتهى البيان

انتهزت فرصة همهمات الحاضرين في المؤتمر الصحفي وهمست للشيخ شاهد العارف:

- كأني الآن بمحاكمة للشيخ بن عربي يتولى الدفاع عنه السيد فكري عبد الحق!

نظر لي الشيخ العارف:

- بل أعظم دفاع عن ابن عربي، كتبه! ولا اجتهاد مع نص!

العرش والخلق الجديد!

اجتمع السيد فكري عبد الحق بالشيخ الأكبر في جلسة قربت من ثلاث ساعات ليكون السيد فكري المتحدث باسمه، حيث اكتفى الشيخ الأكبر بالإشارة إلى نصوص علومه المنسوخة بخط يمينه والمدونة تراثاً بين يدي الأجيال التي حجبته، وقد كان الشيخ الأكبر قد راد أن يجعل من السيد فكري مترجماً لعلومه وفهومه، ولمذاقات أحواله، حتى لا يدخل الشيخ ابن عربي في متاهات جدلية مع من سيجرون حديثاً.

مسح الشيخ الأكبر بيده على رأس فكري، فغاب السيد فكري عن الحس المادي وعاش ميلاداً جديداً في علويات الفهوم.

قال الشيخ ابن عربي للسيد فكري:

– حتى تترجم أحوال أهل البرزخ لابد أن تنتقل معي إلى هناك وتعود!

تقابلت في عالم البرزخ مع خالد بن سنان، "نبي ضيعه قومه!" وقد سماه نبي الإسلام بالنبوة حيث وفدت إليه إحدى بنات أحفاده فقال لها: مرحباً يا ابنة نبي ضيعه قومه!

وحكى لي ابن سنان ما كان من أمره!.. فقد قامت في بلاد عبس نار عظيمة، يقال لها نار الحرتين وهي واقعة في فترة زمنية تسبق مبعث محمد عليه السلام، وكانت النار تظهر ساطعة في الليل، وتخرج عنها عنق، تلقف ما تلاقيه إذا مرت به، وفي النهر تصير دخانا عظيم.. قال العرب فيها:

ونـــار الحـــرتين لهـــا زنـــير يصـــم لهولـــه الرجـــل الســـميع!

فزع العبسيون إلى خالد بن سنان- وكان يقصد في الملمات- فأخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً وخرج بهم نحوها ومعه درة حتى انتهى إلى أطرافها، وقد خرج عنها عنق كأنه عنق بعير!، فأخذ يضرب العنق بدرته ويقول: بدأ بدا حتى رجع!، وجعل يتتبعه والقوم يتتبعونه حتى انتهى إلى غار فانساب فيه، فدخل خالد خلفه، بعد أن عاهد قومه على ألا يستبطئوه فيصيحوا عليه! فيهلكوه!

قال ابن عم له يقال له عروة بن شبه: لا أرى خالداً يخرج إليكم! ولكنه خرج سالما! ويداه على رأسه من الألم الذي أصابه من صياح القوم به، قال لهم ضيعتموني وأضعتم قولي وعهدي، وأخبرهم بموته! وسألهم أن ينبشوا عليه قبره بعد أن يقبر أربعين يوماً!.. وعلامة ذلك أن يأتي حمار أبتر يقدمه قطيع من الغنم فيحازي القبر ويقف، فيقوم من موته! وينبئهم بجلية الأمر بعد الموت عن شهود ورؤية.

فوقع ما تنبأ به من علامة، فهم أولاده ومؤمنو قومه أن ينبشوا عنه، فأبى أكابرهم- كحمية جاهلية- أن يقال فيهم أولاد المنبوش! فتصير لازمة عليهم بين قبائل العرب.. فضيعوا نبيهم وأضاعوا صيته!

فخالد بن سنان هو نبي عالم البرزخ، فإنه ما قصد إلا أن ينبأ قومه بأحوال الآخرة بعد الانتقال للبرزخ.

يقول السيد فكري: رافقت الشيخ بن عربي في رحلة برزخية، سألته عن حقيقة الموت!

قال الشيخ الأكبر:- كالحياة، خلق جديد!

ثم أردف قائلاً:

- انظر إلى القصص القرآني، في مندوحة بلقيس إجابة عن الحياة والموت، عن الخلق الجديد!

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وأُوتِينَا العِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ). النمل.

تحدث الشيخ الأكبر:

كان النبي صلى الله عليه وآله إذا أصبح.. سأل أصحابه "هل فيكم من رأي رؤيا" وذلك لأن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة، كما جاء في الخبر النبوي فكان عليه السلام يحب أن يرى أنوار النبوة في أصحابه، وكذا شأن الأنبياء.

فسليمان عليه السلام حين أراد إحضار عرش بلقيس أحب أن يرى من أمته من يقوم بذلك، وقد أبان لنا السرد القرآني تمكين الإنسان وقدرته على الجان فالفرق بين مقدرة الإنس وبين قدرات الجن، هو الفرق الزمني بين ارتداد الطرف وبين مجلس يطول زمانه نصف نهار.

وسليمان عليه السلام قد تنبأ بإسلام بلقيس قبل مقدمها إليه.. قال تعالى على لسان سليمان (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) وأراد سليمان لبلقيس الإسلام عن يقين، فنكر عرشها ثم دعاها لدخول قصره، عبر صرح بلوري أملس لا أمت فيه، ومن تحته تجري مياه نافرة، فلما رأته في صفاء الزجاج المصقول حسبته لُجة- أي ماء- (وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا) حتى لا يصيب ثوبها، فبين لها سليمان أن الأمر التبس عليها وليس كما ظنت.. فلما أراها عرشها سألها: (أَهَكَذَا عَرْشُكِ).

لم تقل هو، بل تعلمت مما رأته في الصرح الممرد، فقالت: (كَأَنَّهُ هُوَ) فأجابت بما يصادق الحقيقة، فبالفعل لم يكن عرشها!

نظرت للشيخ ابن عربي استوقفه متسائلاً:

– نعود للذي عنده علم من الكتاب: كيف تسني له إحضار عرش مادي يجتاز آلاف الأميال في لحظة ارتداد طرف عين؟!

يقول الشيخ بن عربي:

– الأمر أن العرش في سبأ لم يقطع مسافات بل تم فناؤه ثم أعيد إحياؤه في بيت المقدس فكان خلقاً جديداً ليس هو عين الأول!..يقول تعالى: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) ونسائل أي خلق جديد؟!

فلما كانت الآية رداً على منكري اليوم الآخر، فهم الكثيرون من الآية أننا في الآخرة سننشأ من جديد خلقاً آخر، وإن كان هذا صحيح إلا أنه ليس تفسيراً للآية، فالالتباس لا يقال لشيء لم يقع بعد، بل لأمر واقع.

فالخلق الجديد إذن واقع بنا وليس سيقع، ولكن الأمر ملتبس علينا من صريح الآية فقد تظن في نفسك أنك عين شخصك بالأمس، والحقيقة أن شخصك بالأمس قد انتهى وأنت الآن في خلق جديد، وإنما قولنا بالأمس لتقريب الحقائق للأفهام، والأمر أنك الآن خلاف اللحظة التي قبل الآن!

فالأشياء كلها في خلق جديد ينشأ مع الأنفاس، والنبضات وتحرك الذرات.. ولا علم لأحد بهذا القدر– مذاقاً– بل الإنسان لا يشعر أنه في كل نفس لا يكون ثم يكون، ولا تقل (ثم) تقتضي المهلة.. كلا بل زمن العدم هو زمن الإحياء.

فكأن عرش بلقيس قد مات في سبأ وأحيي في بيت المقدس، وليس هذا عين ذلك، بل كأنه هو، لذلك لما قالت بلقيس كأنه هو، لم يقل لها سليمان بل هو عرشك، فكان صمته إقرارا بمثلية العرش لا عينه.. وكانت المناسبة بين الصرح الذي يبدو كأنه لجة وبين العرش الذي يبدو كأنه هو.

والخلق الجديد هو ما يسمى بالفناء والبقاء، والفناء ليس محو الذات أو الصفات، بل هو محو صور المحدثات محوا مستمراً في كل أنه من الأنات، والبقاء أو الخلق سلسلة من التجليات الإلهية، كل منها ابتداء ظهور صورة من الصور واختفاء ظهور صورة أخرى فالاختفاء هو الفناء عند التجلي، والجديد هو البقاء لما يعطيه التجلي الآخر، ولما كان الزمن واحداً في التجليين كان الالتباس.

ولعلك بمفهوم الخلق الجديد.. تعي مغزى قول النبي صلى الله عليه وآله: ".. لا يزني الزاني وهو مؤمن" مع قوله عليه وآله السلام حين سئل أيزني المؤمن قال: نعم!

واصل الشيخ الأكبر حديثه:

أما آصف بن براخيا الذي عنده علم من الكتاب فكانت علومه تعطي له قوة التصرف في الأشياء، والعلم بخصائصها وأسرارها فكان له التسخير.

والتسخير هو إخضاع الشيء لقوة خارجة عنه تعمل فيه وهو يحدث إما بقوة الهمة فإنها مؤثرة وتنفعل لها الأشياء، وإما بمجرد الأمر من غير الاستعانة بتلك القوة.

ويلزم من هذا أن من تسخر له الأشياء بواسطة الهمة لابد أن يصل إلى درجة يقال عنها الجمعية، وهي رتبة روحية خاصة وهي التي توجه بها همته نحو الشيء المراد فيحصل عليه، فإن أجرام العالم تنفعل لهمم النفوس وفي ذلك

قال النبي صلى الله عليه وآله "اتقوا غيظ القلوب ولو في قلب دابة" وقال في شأن بعض الناس"... لو أقسم على الله لأبر قسمه".

... وهذا التسخير قد يكون بقوة مكتسبة يتحصل عليها السالك بالمجاهدات والنوافل، أما التسخير الثاني فبمجرد الأمر، فهو قوة يهبها الله لمن يشاء من غير كسب ولا مجاهدة ولا توجيه همة، كقوله تعالى في شأن سليمان (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)، والحق تعالى يقول في حقنا كلنا من غير تخصيص (وسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) وقد ذكر تسخير الرياح والنجوم لا عن أمرنا بل عن أمر الله، أما في حق سليمان فبمجرد أمر سليمان!

فكان التسخير من سليمان مجرد التلفظ بالأمر لمن أراد تسخير؛ من غير همة ولا جمعية، وكشأن النبي صلى الله عليه وآله حين رأي وأصحابه سواد شخص بعيد، فقال عليه السلام: "كن أبا ذر"، فكان أبو ذر.

أما قول سليمان عليه السلام في الآية (وأُوتِينَا العِلْمَ مِن قَبْلِهَا وكُنَّا مُسْلِمِينَ) فهو بيان بما سيكون من شأن إسلام بلقيس ورتبته، فعلمه سابق (من قبلها)- وقد أرد لبلقيس ذلك العلم- فكان علمها من منبع علمه، لذا كان إسلامها من مقام المعية (أي مع) إذ قالت (أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ) فما مر سليمان بشيء من العقائد إلا مرت به، فرزقت بلقيس النفحة الإيمانية بمجرد توجه سليمان عليه السلام- قبل لقائها- فكان إيمانها كشأن نقل عرشها: خلقاً جديداً!

نظر لي الشيخ الأكبر قائلاً:

- ولعلك بعد هذا تدرك أن القصص القرآني ليس سرداً لحكايات، بل هي علوم مضمرة في قالب قصصي وإدراكها إنما هو فيض من الكرم على قلوب المتقين.

الخوف والقتل؟!

سألت الشيخ الأكبر:

– ما هو مفتاح الفهم للقرآن العزيز؟!

الشيخ الأكبر:

– لسان العرب وهذا أمر مفروغ منه ثم التساؤل!.. والبحث عن إجابة، فالقرآن يسأل ويجيب، ويسأل ويدعوك إلى عناء البحث عن إجابة، إن دعاك لفكر تفكر! وإن دعاك للعقل فاعقل وأن دعاك للنظر فانظر! وعلى ذلك يكون خوضك فيه مع التدبر.. فإن أقسم الله بالتين والزيتون، فلك أن تتساءل عن مقصد الحق تعالى من القسم وإن تأملت بقية الآيات ستجد قسماً بأماكن مقدسة: طور سيناء حيث كلم الله موسى، ومكة البلد الحرام.. ستقول أين بيت المقدس؟!

– ستجده في كناية التين والزيتون، أي حيث يزرع التين والزيتون.

سألت الشيخ الأكبر عن علوم المذاقات!

قال الشيخ الأكبر:

– العلوم بين كسبية، وهي التي تحصل من استذكار ومدارسة وفكر، وعلوم وهبية هي من حضرة اسم الله الوهاب، يتفضل بها الحق تعالى على من شاء من عباده اختصاصاً. (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ).

فمذاقات العلوم الكسبية هي التي تدركها عن عمل وحضور، كاستحضار الحق تعالى في صلاتك، حتى تشهد الحق مناجياً لك من وراء حجاب، وحتى نرى خلعة صمدية عليك حال صومك.

أما مذاقات العلوم الوهبية فلا يدركها إلا صاحب حال، من نبي ورسول وعبد مصطفى ووارث، كقول الإمام علي عليه السلام وهو يضرب على صدره أن ههنا لعلوما جمّة لم أجد لها حملة" فهو مذاق لا يعايشه إلا صاحبه فقوله عليه

السلام من حال التأوه لا من مقام الفخر والعرض.. وكقول النبي صلى الله عليه وآله: "لي وقت لا يسعني فيه غير ربي".. لست كهيئة أحدكم.. الحديث.." لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً.. "فهذا حال لا يدركه إلا صاحبه.

سألت الشيخ الأكبر عن الإشارات في القرآن العزيز ونماذج لها.

قال الشيخ الأكبر:

– القرآن العزيز جوامع كلم، والإشارات تغني عن سرد وتفصيل وإسهاب وإطناب، فالإيجاز هو الجامع لمضمون واسع..وقد تظن في بعض الآيات التكرار، ولكن القرآن العزيز كتاب موجز لا تكرار فيه ولا زيادة، فلكل مقصد مختلف.

أما النماذج كقوله تعالى: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى) ستجد أن موسى موقعه في الكلام فاعل، والمألوف في اللغة أن يأتي الفاعل بعد الفعل.. فيكون الكلام على هذا السياق (فأوجس موسى في نفسه خيفة)، أما الإشارة التي نبلغها من تأخير الفاعل في الآية، فهي دعوة للوقوف مع لغز خوف موسى!

استوقفت الشيخ لأساله:– وما هو اللغز في خوف موسى؟!

قال الشيخ الأكبر:

– خوف موسى كان الداعي لإيمان السحرة!

قلت له: كيف؟!

قال الشيخ الأكبر: دعني أحدثك أولاً عن القرآن:

القرآن العزيز غني بالعبارات اللغوية، ففيه من التشبيهات والاستعارات والتقديم والتأخير والصيغ البلاغية والوصفية والخبرية، والقصص والأوامر

والنواهي، والتخصيص والتعميم، والتذكرة والإنباء الغيبي، والإيضاح والإبهام والإحكام، والإشارات والتصريحات، والأمثال والحكم، والسُكر والصحو، والإسرار والإعلان، والتشويق والروْاء، ما يدعو قارئه إلى الإقرار بإعجاز، وإن لم يبلغ شأوا في إدراكاته.

فالقرآن يدعو قارئه إلى تدبر آياته (ولَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ) فمن أراد أن ينهل من عذب مشاربه ويقف على مشارف إعجاز، فعليه إتباع أمر قراءته تهجداً، ووعداً للمتبع بالبيان (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ).

ثم استأنف الشيخ حديثه:

فهم الكثيرون أن عصا موسى- حين ألقاها وقت تحدي السحرة- قد ابتلعت حبال وعصى السحرة، والأمر غير ذلك، فالنصوص القرآنية الصريحة لا تقول بذلك، ولكن إلقاء العصا قد أبطل السحر، فأصبحت الحبال حبالاً، العصى عصياً كما هي حقيقتها... وفي أعين الناظرين بعدما خيل لهم من السحر أنها تسعى (...قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ).

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) ومعلوم أن حبالهم وعصيهم ليست إفكا، بل الإفك هو ما جاء من سحر.. (وأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ) فعصا موسى لقفت صناعتهم وليس ثم إلا لسحر.

أما عن إيمان السحرة، فكان حين علموا أن موسى ليس بساحر، وذلك حين وقع الخوف منه حين ألقوا ما ألقوا (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى) فقالوا لو كان موسى ساحراً لما حصل له خوف، فالسحر لا يقلب الحقيقة المادية للأشياء ولكنه خيال محض يلحق بالوهم ويأخذ بالأبصار، فلو كان ساحراً لعلم حقيقة ذلك وما وقع له خوف.

أما عن حقيقة خوف موسى ففيه وقفة تأمل، هل كان خوفه مما وقع من السحر كما ظن السحرة؟.. هل خاف من الحيات التي تسعى في نظر الرائي؟

حين أمر الله تعالى موسى بإلقاء عصاه- بالوادي المقدس- صارت ثعباناً مبينا ولي موسى منه مدبراً ولم يعقب، فناداه ربه أن (أَقْبِلْ ولا تَخَفْ) وبين له تعالى أن عصاه لم تخرج عن سيرتها الأولى من كونها عصاه، وكان ذلك تبيانا له قبل لقاء السحرة، فموسى لم يخف من إلقاء السحرة، فقد بصره ربه واعتاد على ألا يخاف.

إنما كان خوف موسى على جمهور الناظرين من وقوع التباس الأمر عليهم فلو وقع الالتباس لما وقع منهم إيمان- وقد وقع الالتباس بالفعل- فما رأى الجمهور إلا ساحراً يتحدى سحرة، فكان سهلاً أن يتبعوا مقولة فرعون وما أشاعه: (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ).. إضافة إلى حيلة افتراء وترداد لمقولة: (إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ) فاستخف فرعون قومه فأطاعوه.

أما حقيقة إيمان السحرة فهو إيمان عن التباس فهم الخوف الذي جرى لموسى، فلما ظن السحرة أن خوف موسى إنما هو من سحرهم، كان ذلك سبباً

كافياً لنفي أن يكون موسى ساحراً، وإلا لكان جائزاً منهم- أي السحرة- اتباع مقولة فرعون ظنا أن موسى أكثر علماً ومهارة بفنون السحر منهم.

ولما كان سابق عملهم فيما يأتونه من سحر هو تلبيس الحقائق بزيف السحر، فيقع للناظر الالتباس، كان إيمانهم من جنس عمله "إنما هي أعمالكم ترد إليكم" الحديث... فالتبس عليهم أمر خوف موسى فوقع منهم الإيمان، ولم يمنع التباس الأمر عليهم من قبول إيمانهم.

سألت الشيخ الأكبر عن القتل الذي وقع من نبي الله موسى، وكيف نجا من غم القتل؟!

قال الشيخ الأكبر:

- في مندوحة الخضر إجابة عن نجاة موسى من الغم.. فقد وقف موسى أثناء صحبته للخضر.. على حقيقة ما وقع منه من أمر قتله للمصري.. فكان ذلك نجاة له من الغم الذي صاحبه من كونه قاتلاً (وقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ وفَتَنَّاكَ فُتُونًا).

فكانت صحبة موسى للخضر ووقوع القتل من الخضر- عن أمر إلهي- قد أبان لموسى أن ما وقع منه هو من قتل كان على شاكلة ما وقع من الخضر فعلم أنه كان محفوظ الباطن كشأن الخضر، وأنه كان لا يدري ذلك في نفسه قبل صحبته.

فعلم الخضر علم الباطن والكشف والتحقيق، وعلم موسى علم الظاهر والتشريع والسلوك.. والعلم الخضري لا يتحصل بالاكتساب فهو علم لدني من حضرة الاسم الوهاب (وعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)، والعلم التشريعي هو افعل ولا

تفعل، أمر ونهي، لذا كان استنكار موسى قبل أن يدري- باطن فعل الظاهر- استنكاراً لما هو مخالف لظاهر الأمر التشريعي.

أما الخضر فلم يذهب بعيداً في تعليمه لموسى، فقد أظهر لموسى ما وقع له- أي لموسى- من قبل، وما وفق إليه في سره، وإن كان غاب عن موسى إدراكه في وقته.

فكان خرق السفينة، ظاهر هلاك (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) والباطن نجاة: (وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا).. أما ما يقابله من شأن موسى من قبل، وضعه رضيعاً في تابوت وإلقاءه في اليم ووقوعه في يد عدوه! والفاعل أرحم الناس به- أم موسى!- فأداء أم موسى أداء خضري وإن غب عنها علمه!

وإقامة الخضر للجدار دون طلب أجر رغم حاجتهما (اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا..) أي أنهما كانا في حال افتقار، يقابله من شأن موسى من قبل، سقايته لبنات شعيب (فَسَقَى لَهُمَا...) دون طلب أجر منهما كان مفتقراً إليه إذ أعلن حين تولي إلى الظل فقال:

(....رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ).

وحادثة القتل وقد وقع على يد من زكاه الله عند موسى رحمة وعلماً، فلما علم موسى من الخضر تأويل ما لم يسطع عليه صبراً، وعلم أن الخضر محفوظ الباطن في أداءه لقوله (ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) علم أنه كذلك- أي موسى في نفسه- كان محفوظ الباطن في القتل الذي كان منه.. وإنه كان مفتونا عن هذا الإدراك (وفَتَنَّاكَ فُتُونًا).

أما استيقاف موسى للخضر، ففي الأولى كانت نسيانا، (قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ).. وفي الثانية كان استنكار عفوياً صارخاً (لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا) رغم تزكية الله للخضر عند موسى، ورغم ما شرطه الخضر عليه في اتباعه، لأنه مس موضع الألم الذي صاحب موسى من وقوع القتل على يديه من قبل، وفي الثالثة كان بعد زوال الغم عنه، حيث فهم موسى أنه المقصود بتلك الإشارات، ففهم الثالثة! وما يقابلها من عمل دون أجر! فلم يستنكر ما فعله الخضر ولم يسأل الخضر عنها بل صرح بالإجابة التي تدل على أنه فهم الأمر!

أما عن حكمة الفراق- أعني فراق موسى للخضر- فلم يكن عن عتاب ولا مؤاخذة، إنما كان لكون الصحبة حققت المطلوب من فهم موسى للأمر بل الفراق في حد ذاته تأكيد لهذا الفهم، فموسى محفوظ الباطن في أداءه وأقواله، فهو ينطق بالله- شأن الأنبياء- والخضر يفهم في موسى ذلك، لذلك قال (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ).

فكأنه يقول لموسى.. ليس لي سوى اتباع أمرك فيما قلت (إن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي) واتباع لأمر الله (مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) ولم يقل له موسى لا تفعل ولا طلب صحبته، لإدراكه لمرتبته التي هو فيها والتي أنطقته بطلب الفراق.

سألت الشيخ الأكبر عن علم الخضر بالنسبة لموسى

قال الشيخ الأكبر:

- ليس الخضر بأعلم من موسى بعد أن أعلمه بما يحمله من علم لم يكن يعلمه في نفسه قبل لقاءه، وأما قوله حين وقع عصفور على حافة السفينة وقد غمس بمنقاره

في ماء البحر: أتدري ما قاله العصفور.. قال موسى لا أدري.. قال إنه يقول أن علمي وعلمك في علم الله كمثل ما حمل منقاري من ماء هذا البحر، إنما كان تسرية واعتذاراً لموسى عن قوله له: (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)، هكذا كان أدب العبد الصالح.

سأل فكري الشيخ الأكبر: وكيف يقع قتل من وكز؟!

أجاب الشيخ:

– لم تكن قوة موسى من مألوفات القوة الفردية، وهذا عائد لحكمة قتل الأبناء، فقد أزهق فرعون أرواحاً زكية كثيرة، فما قتلها إلا على أنها موسى الذي سيزول ملكه على يديه، فكانت هذه الأرواح تصرخ عند العرش تطلب ثأرها.. فكانت بمثابة مدد وتأييد لموسى، فظهرت فيه في مظهر قوته التي علمناها من القتل الذي وقع من وكز، ومن رفعه غطاء البئر للرعاء بمدين.

سألت الشيخ: وما المقصد من مجمع البحرين؟!

قال الشيخ:

– هو مقصد اجتماع العلمين في نبوة موسى، علم الظاهر والباطن

– وما المقصد من حياة الحوت المقدد؟!

قال الشيخ:

– المجمع مجمع علم!.. والغمس فيه هو الحياة! والإحياء (أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ) ميتا

بغياهب الجهل، فأحييناه بالعلم فهو على هدي وبصيرة.. والحوت هو طعامهم، وهو ما يحملونه من علم، ألا ترى قول النبي عليه وآله السلام، "إذا استطعم الإمام فليطعمه من خلفه" فسمي القرآن طعاماً، وهو مشهور في لسان قريش أن تسمى الكلام طعاماً، فهم يرونه غذاء النفس وسكناتها، كقول القرآن على لسان يوسف (قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا) فالطعام هنا لا يقصد به المأكول، وإلا لقال لهم: نبأتكما به وليس (بتأويله).. فالمأكول لا يؤول بل التأويل في المنام وهو علم غيبي، فسمى ذلك طعاماً!

سأل فكري الشيخ الأكبر:

– هل ما بين أيدينا من صحف أهل الكتاب والنصارى قد جرى عليها التحريف؟!

الشيخ الأكبر:

– لا نملك أن نقول ذلك!

قال فكري للشيخ الأكبر:

– ولكن جاء في ذكر الذين هادوا قول الحق عنهم (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ).

الشيخ الأكبر:

– يقول الحق تعالى (مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا) وهذا يفيد التبعيض، لا التعميم، ويفهم أن التحريف تأويلي! حيث قال تعالى (عن مواضعه) وليس تحريف نصوص!

فكري عبد الحق: ولكن جاء في القرآن العزيز أن عيسى بن مريم قد بشر بمحمد في الإنجيل، والإنجيل بين أيدينا فيه ذكر لمحمد!

الشيخ الأكبر:

– بل موجود ذكره!.. فالقرآن قال على لسان ابن مريم عليه السلام: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ).. لم يصرح بمحمد!.. بل أشار إليه!.. وأحمد هو إشارة إلى محمد، فهو يرمز له ويدل عليه، فهو في الإنجيل لن تجد ذكره– عليه السلام– بصريح اسمه، بل ستجده مذكوراً بالإشارة!.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– وما هي إشارة محمد في الإنجيل؟!

قال الشيخ الأكبر:

– قول المسيح عليه السلام: الحجر الذي رفضه البناؤن صار رأس الزاوية!

قال فكري للشيخ الأكبر:

– العبارة تحوي إشارة، ولكني لا أدري تأويل تلك الإشارة!

الشيخ الأكبر:

– البناؤن هم بناة الدين! هم بنو إسرائيل، أما الحجر المرفوض، فهو إسماعيل بن إبراهيم فهو ابن الأمة هاجر!.. ومحمد من شجرته، فصار رأس الزاوية!.. ألا تراه عليه السلام قد أنزل نفسه منزل اللبنة (الحجر) حين مثله بمثله ومثل الأنبياء من قبله ببناء ينقصه لبنة! من يراه يتعجب له ويقول ما أجمله إلا أن يكمل بتلك اللبنة، فكان عليه السلام هو تلك اللبنة وكان هو ذلك الحجر.

الأمانة والتكريم

سأل فكري الشيخ الأكبر:

– يقول النبي عليه السلام "من عرف نفسه عرف ربه" كيف السبيل إلى معرفة النفس؟!

قال الشيخ الأكبر:

– أن تزيل الجهل عنها!.. فتعلم قدرك وما خلقت من أجله، أن ترى تكرمك حين حملت الأمانة، وترى في نفسك ظلما أن لم تؤدها، وجهلك إن لم تنزلها قدرها.

قال فكري للشيخ الأكبر: وما هي الأمانة؟!

قال الشيخ الأكبر: الأمانة.. تكرم الإنسان، دعنا نتدبر القرآن.

مع آية من القرآن الكريم تبين لنا شأن الإنسان.. نقف لنتأمل كيف يجهل الإنسان قدره؟!.. ولِمَ كان مدعوا للبحث في معرفة نفسه، من حديث النبي صلى الله عليه وآله (من عرف نفسه عرف ربه).

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) الأحزاب الآية ٧٢.

ما هي الأمانة؟.. وكيف كان عرضها..؟ ولم أبت السموات والأرض والجبال حملها؟.. وما هي دواعي الإشفاق منها.. ولم حملها الإنسان؟.. وأي ظلم كان منه؟.. وأي جهل؟

تلك التساؤلات يفرضها السياق الخبري للآية الكريمة.. ومع تأملات الآيات ندرك أن الأمانة من مؤهلات الإنسان ونعوته، ولا يتصف بها غير، من الموجودات، فهو الذي حملها دونهم.

فالسموات هي العالم العلوي وأصل النشأة الكونية.. والأرض هي العالم السفلي وأصل نشأة المادة.. وخلق الإنسان من مجموع العالم العلوي المشار إليه بقوله تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)، والعالم السفلي المشار إليه بقوله تعالى (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ).

فكان الجسد من جميع عناصر الأرض ثم نُفخت فيه الروح فتكون الإنسان كائنا حياً.. ومن علائق الروح بالجسد كانت النفس، فاحتوى الإنسان سائر العوالم بالروح والنفس والجسد، بل وزاد على مخلوقات عالم الملك وعالم الملكوت بما لا تقوي على حمله منفردة أو مجتمعة، وهو ما قبل حمله حيث أبت السموات والأرض والجبال.

أما عن الآية القرآنية (إِنَّا عَرَضْنَا) فالعرض ليس بلسان خطاب: هل تقبل حملها أم لا تقبل؟!.. والإباء والإشفاق منها لا يعني رفضاً أو خشية وقوع أمر قسراً.. ولكنه عرض ورفض وإشفاق بلسان حال لا لسان مقال.. هو رفض بالاستعداد، وقبول بالاستعداد، فالذي حمله الإنسان لابد من وجود آثار فيه منفرداً عن سائر الموجودات.. وما اختص الله الإنسان بشيء ليس في الموجودات إلا الخلافة!

فالملائكة عمار السموات، والجن والحيوان عمار الأرض والجماد المشار إليه بالجبال: ليسوا خلفاء.

.. وقبل الإنسان الخلافة من حيث أنه مخلوق لها (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) فجعل الحق تعالى فيه الاستعداد للخلافة.. وهيأ له كافة أدواتها (وآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ).

والخلافة هي ظهورك بعطايا من استخلفك، وأول تلك العطايا هي خلق الله آدم على صورته ".. الحديث، والمقصود الصورة الباطنة- دون تجسيد ولا تمثيل- فالإنسان مجلي لأسماء الله وما ثم إلا صفات الحق تعالى.. وقد نهانا الحق تعالى عن الكبر.. "الكبرياء ردائي والعظمة إزري من نازعني فيهما قصمته ولا أبالي".. الحديث، وما نهانا الحق إلا من حيث أننا قابلون لهذا المجلي.

فخلق الإنسان على صورة الحق ليس إلا استعداداته لقبول مجليات الصفات، لذلك قبل الحمل (وحملها الإنسان) وقد أمرنا النبي عليه السلام بأن تظهر بخلع الحق تعالى فينا فدعانا أن نتخلق بأخلاق الله.

فمجالي الحق تعالى فينا من حيث أسماؤه الحسنى إن أقمناها على وجهها- بأداء ما استودع فينا من أمانة- فقد قمنا بمهام الخلافة، إن أقمناها بغير موازينها- كأن يكون مجلي الاسم القهار فينا فساداً في الأرض أو سفكاً لدم بغير حق- نكون قد أقترفنا ظلماً (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) والظلم في اللغة هو وضع الشيء في غير موضعه.

وقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يظهر الإنسان على تلك الصورة، حاملاً للأمانة، مؤهلاً للخلافة، وما عداه فهو مسخر له لا لأن الذات الإلهية تطلب وجود الخلق، فإن الذات الإلهية غنية عن العالمين، بل لأن الأسماء الإلهية تطلب ذلك الوجود، إذ لا وجود لها إلا به، ولا معنى لها إلا فيه، وهذا معنى

قول النبي عليه وآله السلام "والذي نفسي بيده لولا تذنبون لذهب الله بكم وأتى بقوم آخرين يذنبون فيستغفرونه فيغفر لهم"، فاسم الغفور يتطلب لظهوره وجود ذنب ومستغفر، فلابد من وجود من يذنب وإلا فلا ظهور للاسم.

فلما شاء الحق ظهور الخلق في كون جامع عام، وظهور الإنسان بوجه خاص، وكانت مشيئته من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها العد ولا الإحصاء أظهر الوجود في كون جامع يحصر الأمر كله، وأظهر الإنسان، فكان أعرف مخلوق بربه، ففي العالم تجلي الوجود الإلهي، وبالعالم عرفت صفات الله وأسماؤه، أي عرفت ألوهيته، فنحن نعرفه في أنفسنا بقدر ما نعرف من حقيقة تلك النفوس، وهذا معنى قول النبي عليه وآله السلام "من عرف نفسه، عرف ربه".. والخلافة هي جلاء مرآة الوجود، والإنسان في مقام حملها هو جرم المرآة القابلة لما يقع فيها من صور، ولا تحقيق لها إلا مع وجود الصورة.

فالإنسان من حيث كمالاته هو أصدق صورة للخالق- دون تجسيد- بل خلق من أجل هذا، فلم يزل الحق متجليا عليه أبداً في مقام المعية للأحياء.. (وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) وفي مقام القربة (ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ) وعند الموت (ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ولَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ).

وتلك المجالي دون اتصال ولا انفصال، تقدس الله.. (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) ليست حكما على مطلق الإنسان، فالتعميم لحكم الأكثرية، كمألوفات اللغة.

(جهولاً) فمن غفل عن كون الحق تعالى معه حيثما كان فقد جهل، ومن غفل عن كون الحق تعالى في كل وجهة هو موليها- (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ

وجْهُ اللَّهِ)- فقد جهل (ومَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) والكل غافل إلا من سبقته العناية.

سأل فكري الشيخ بن عربي: هل كلنا خلفاء؟!

قال الشيخ:

- الخلافة في الإنسان عامة وخاصة، فهي مراتب، فعموم الخلافة للبشر تضمنه معنى استخلاف آدم، وخصوص الخلافة للأنبياء وعباد الله المصطفون بما أخذ عليهم من مواثيق.

وعطايا الحق تعالى للأنبياء والمرسلين- عليهم السلام- ابتداء على طريق الإنعام والإفضال، فهي عطايا مواهب وليست جزاء، ولا يطلب عليها منهم جزاء، فالنبوة والرسالة اختصاص إلهي ليس فيها شيء من الاكتساب، قال تعالى (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ).. يعني لإبراهيم عليه السلام.. وقال تعالى في أيوب (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ..).. وقال تعالى في شأن موسى: (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) فالذي تولاهم ابتداء هو الذي تولاهم في عموم أحوالهم وأكثرها وليس إلا اسمه الوهاب.

استأنف الشيخ الأكبر حديثه قائلاً:

- دعني أحدثك عن عطايا الحق تعالى لداود عليه السلام فهو النبي المنفرد بصريح الخلافة نصاً في القرآن العزيز:

قال تعالى في حق داود عليه السلام (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً) فلم يقرن به جزاء يُطلب منه، ولا أخبر أنه أعطاه ما أعطاه جزاء لعمل.. ولما

طلب الله تعالى الشكر، طلبه من آل داود ولم يتعرض لذكر داود، فهو في حق داود عطاء نعمة وإفضال، وفي حق آله على غير ذلك لطلب المعاوضة، فقال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا).. وإن كان الأنبياء سلام الله عليهم قد شكروا الله على ما أنعم به عليهم، فلم يكن ذلك عن طلب من الله، بل سارعوا بذلك من نفوسهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تورمت قدماه، لما غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلما قيل له في ذلك قال "أفلا أكون عبدا شكوراً".

وإتباعاً لإيماننا بأنبياء الله، ومن مقام توقيرهم (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ) نراهم من مشكاة واحدة، ومن قصصهم نتطلع إلى مقاماتهم تأسياً وإتباعاً (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) ولا نعني من تعرضنا لسيرتهم مفاضلة بينهم، فهذا مقام لا مذاق لأحد فيه غيرهم! وإن كنا نعلم- بما أخبرنا الله في القرآن العزيز- بتفاضلهم ولكن بميزان الحق تعالى لا بموازيننا، فليس لنا سوى إتباع ما قص الله من نبأهم (لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)..

قال تعالى في حق داود فيما أعطاه عن طريق الإنعام عليه، ترجيع الجبال معه تسبيحه، فتسبح لتسبيحه ليكون له عملها وكذلك الطير، وأعطاه القوة ونعته بها، وأعطاه الحكم وفصل الخطاب، ثم المنة الكبرى والمكانة الزلفى التي خصه الله بها: التنصيص على خلافته، ولم يفعل ذلك مع أحد من أبناء جنسه- وإن كان فيهم خلفاء- فقال (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) ص/٢٦.

فإن قيل وآدم عليه السلام قد نص على خلافته، قلنا ما نص مثل التنصيص على داود فإن هذا محقق وذلك ليس كذلك، وإن كان ما جاء في ذكر

آدم فيما قصه القرآن يدل على أنه عين ذلك الخليفة، وكذلك في حق إبراهيم عليه السلام (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ولم يقل خليفة، وإن كنا نعلم أن الإمامة هنا خلافة، ولكن ما هي مثلها، لأنه ما ذكرها بأخص أسمائها وهي الخلافة. ثم في داود من الاختصاص بالخلافة أن جعله خليفة حكم، وليس ذلك إلا عن الله وخلافة آدم قد لا تكون من هذه المرتبة، وليس كلامنا إلا في التنصيص عليه والتصريح به.

وقد يكون ما بين آدم وداود عليهما السلام ما يشير إلى إرث الخلافة، فالابن سر أبيه حتى إن ظهرت في الابن صفة غير سائدة في الأب إلا أنها تكون من موروثات الأب المتنحية، أما ما نعنيه بما بينهما- عليهما السلام- فهو ما جاء به الخبر من أن الله تعالى أطلع آدم على ذريته فرأي منهم داود، فسأل الله عن عمره ووهبه من عمره أربعين سنة، إلى آخر القصة المعروفة، ونسائل: ولم اختص آدم داود بعطائه وفي ذريته- من الأنبياء- من هو أقل عمراً من داود؟!.. فنجد في مناسبة اختصاص داود بالخلافة النصية جواباً لذلك.

قال فكري للشيخ الأكبر:-

وهل ورث سليمان الخلافة عن داود؟

قال الشيخ:

- (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) والابن سر أبيه، فظهرت في سليمان عطايا الحق تعالى لداود إرثاً، فكان سليمان خليفة حكم خلافة عن داود إتباعاً لنصوص التشريع والأحكام، وقبل الزيادة خلافة عن الله فقد حكم داود في قضية الحرث، وهو حكم بما أنزل الله من تشريع وحكم سليمان في عين القضية حكماً مغايراً لحكم داود، وكلا الحكمين معتبر عند الله.

فالحق تعالى حين أقر حكم سليمان ورجحه.. لم يخطئ حكم داود فقال (وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وعِلْمًا).. فحكم سليمان هو حكم الله، فقد نسبه الحق إلى نفسه تعالى فقال (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) ولم يقل ففهمها سليمان، فكان ناسخاً لما هو معتبر عند الله من حكم داود.

ولا نعني بقبول سليمان الزيادة أن الزيادة في الحكم- وإن كان حكمه بالفعل من هذا المقام- إنا نعني بالزيادة هو الخلافة عن الله، فالأنبياء خلفاء لبعضهم (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) هو اقتداؤهم بتشريع من سبقوهم، فإن زيد لهم في التشريع فتلك الخلافة عن الله.

لذلك لما ظنت اليهود في عيسى بن مريم أنه لا يزيد عن موسى آمنوا به، فلما نسخ في شرع موسى بالزيادة في الأحكام- حتى ولو بالنقص فإن النقص في الحكم زيادة بلا شك- لم يطيقوا ذلك وطلبوا قتله، فكل نبي إنما هو خليفة عمن سبقه من وجه وعن الله من مقام آخر، وإنما قصدنا في نبوة التشريع ونسخ الأحكام ليس مقاماً للمفاضلة بين داود وسليمان عليهما السلام فهما (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) فالابن وارث للأب، والأب مالك لعطايا الابن!" أنت ومالك لأبيك" الحديث.

وكان شكر سليمان لأنعم الله.. (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ) أما عن شكر داود فقد سأل ربه كيف يشكره وشكره إياه نعمة من نعمائه؟!- كأنه عليه السلام يبغي شكر الله على نعمة الشكر!- فأوحى الله إليه أن يا داود إذا علمت أنك عاجز عن شكري فذلك شكري!

لذا كان أشرف الخلق وأعرفهم بالله عليه وآله السلام هو أبلغ من شكر ربه "لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" وأعطيت لأمته ببركته أعظم كلمة "الحمد لله" فنحن لا نقولها بمعنى أننا نحمد الله بحمدنا، بل القائل هو الله ثم نسب القول فضلاً إلى عبده، فقدمنا عجزنا وأثبتنا له الحمد بما هو أعلم (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ).

فجميع ما في الوجود من كائنات ناطقة وغير ناطقة روحية أو مادية، حية أو غير حية، تلهج بالثناء على الله، فهي مظهر تتجلى فيها عظمته وكماله تعالى ولكنه ثناء صامت لا ندركه عادة، لذلك قال (وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فإلى الله ترجع عواقب ذلك الثناء، فالثناء منه وعليه.

(وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) هو كلام الله يتغنى به فيجتمع له الإنس والجن والوحش والطير مهرولين من كل حدب وصوب، فتصدح الطير مسبحات وتتساقط صرعى من النغمات، وذلك لأن الله تعالى حين جمع أنفس بني آدم- في عالم الذر- وأشهدهم على أنفسهم وخاطبهم بقوله (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فما برح صوت الله تعالى أسماعنا ولم يزل عالقاً بها حتى تشاغلنا بحجاب البدن وشهوات النفس، فترنا إذا سمعنا صوتاً جميلاً تهيج فينا الذكرى وتحن القلوب شجناً وبكاءً وسكراً وطرباً، حنينا لذكرى سماع صوت الحق القديم.. فالطير فينا هو رمز الأرواح تصدح بذكر ربها، والجبال فينا هي ماديتنا تخشع وتؤب صدى الأرواح (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ).. هي دعوة لنا حين نسمع كلام الله ونتلوه.

سأل فكري الشيخ الأكبر عن الإنسان والملائكة وأوجه المفاضلة؟!

قال الشيخ الأكبر: انظر أولاً إلى عناية الله بالإنسان من مقام الاسم الوهاب:

وهب الله للإنسان مسخرات لا تتناهى، ودعاه إلى العمل والسعي، ليصل إلى غاية الإدراك، لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً، حتى يقف على مشارف سر عناية الله به، بما مكنه من مسخرات وأقدره عليها، فيكون ذلك دعوة إلى صلة حب، مبتدؤه من الله ومنتهاه عند الإنسان، فالبداية كانت رحمة الإيجاد، والمنتهى صلة الجمع واللقاء.

ولما كانت القيود العقلية هي مركب الإقناع، فقد جاء الأنبياء برسائل السماء مؤيدة بإعجاز مادي ملموس يتجاوز حدود المألوفات والمعقولات، يدرك العقل من خلالها أن الأمر يتجاوز حدود قيوده، فينقاد مستسلماً ويرضخ لسماع رسالة السماء.

ونقف مع آية سجود الملائكة لآدم لندرك عناية الله بنا، ولنتأمل سر تكريم آدم عليه السلام، علنا نقف على حد عجزنا عن الحمد والثناء، بالغين مغزى قول النبي العربي "لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"، ويلزمنا للتأمل مراعاة اللغة العلوية للقرآن، متحررين من القيد المادي للكلمة، فلسان العرب آفاق تحل على سائر الألسن، فكان كلام الله قرآنا بلسانهم، فحقيق علينا أن نسمعه في أرض وجودنا مدركين أنه التنزيل.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ...) البقرة الآية ٣٤.

نظر الشيخ الأكبر لفكري باهتمام قائلاً:

– يقال أُسجد البعير إذا خضع وسُخر وذلل للركوب، فسجود الملائكة ليس كهيئة ما عهدناه من سجودنا– على سبعة أعظم– فليس للملائكة أجسام عنصرية فهي مخلوقة من نور، فلم يكن سجودها إلا ما يعنيه السجود من تسخير، فيقومون في

مقتضى مطلب الآدمي تسخيراً عن أمر الله، وقبول الملائكة لهذا التسخير هو وقوع السجود منهم.

أما قولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) فلم يكن نقاشاً منهم للحق تعالى ولم يكن تعجباً ولا تزكية لأنفسهم، بل كان سؤالاً واستنباء لمعرفة شأن الآدمي، وقد صدقهم الله في قولهم (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) فقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) وهي آية سجد لها النبي عليه وآله السلام إقتداء بسجود الملأ الأعلى، فليس في الآية أمر بالسجود، وإنما هي إخبار بحال الملائكة، وقد قال الله للنبي في شأن إخوانه الأنبياء (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فكان شأنه عليه السلام الاقتداء بالهدي فمن سجد هذه السجدة فقد شارك الملائكة في سجودهم وتسبيحهم.

ولم يكن قولهم (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) من مقام مفاضلة بينهم وبين الآدمي، وقد ذهب من ذهب إلى تفاضل البشر على الملائكة لوقوع السجود منهم لآدم، والأمر ليس كذلك، أعني أن التسخير ليس قياساً للمفاضلة، فقد يسخر الأدنى الأعلى، فالملك أو الحاكم مسخر في شئون رعاياه، ويسخر الصغير الكبير، فننزل للطفل نداعبه ونقوم بشئونه إنما كان قول الملائكة إخباراً بما فطروا عليه من حمد وتقديس الله، واستلهاماً من الله واستعلاماً عن مخلوقه الذي يستخلفه.

وقد أجابهم الله بما أستودع في آدم من علوم لا علم لهم بها (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) ليس مفاضلة بين علم الله وعلم الملائكة- جل شأن الله وتقدس- ولكن بمعنى إني أعلم في مادية من جعلته خليفة مالا تعلمون، أي إني أعلم من حيث أن آدم يعلم مالا تعلمون، فنسب الحق تعالى علم آدم لنفسه، كقوله

تعالى في الحديث القدسي "... مرضت فلم تعدني.. جعت فلم تطعمني" وليس المريض أو الجائع سوى زيد وعمرو.

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فما عرض عليهم إلا المسميات لا الأسماء، لقوله تعالى ثم عرضهم ولم يقل عرضها فأجابوا وقدموا التنزيه (قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا) فنفوا عن أنفسهم العلم الكسبي (إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا) وهو ما يلقي فيهم من علوم (إنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ) فلا علم إلا مستودع منك بقدر ينبغي لحكمتك (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ...) النبأ إنما يكون عن علم غيبي، فلم يقل أخبرهم (فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ) وليس إلا المسميات ومدلولاتها من وصف وخواص (قال....) الله تعالى (أَ لَمْ أَقُل لَّكُمْ إنِّي...) لا من حيث ذاتي التي لا يعلمها سواي، وإنما في مادية آدم الخليفة (أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) وهو ما رأوه من إنباء آدم بالأسماء، فآدم قد عُلم الأسماء كلها وليس بعضها، فأوتي علوم غيبيات السماء والأرض (وَأَعْلَمُ...) من حيث ذاتي (مَا تُبْدُونَ..) وهو ما ظهر فيكم من علوم (وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) وهو ما بطن فيكم وخفي من فهوم.

أما بشأن المفاضلة بين الملك والإنسان، فالملائكة هم عباد الله المكرمون وقد أثنى الله عليهم في كتبه وعلى ألسنة رسله، فهم في طاعة الحق لا يقوون على معصيته..

والإنسان في مقامه الأرضي ووقوفه مع متطلبات النفس وشهواتها وغضه البصر عن ربه وعما خلق من أجله، قد يكون أقل شأنا من سائر المخلوقات.

وفي مقامه العلوي وعروجه بما استودع فيه من علوم وأسرار، هو أكمل الموجودات "يا بن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي.."... الحديث، ففي مقام الكمال اجتاز ما هو محظور للملائكة، فتلك مقولة الروح الأمين "لو تقدمت شبراً لاحترقت.." بل ارتقى محمد الإنسان- في عروجه لربه- العاليين من خلائق الله، والعالون هم من جنس الملائكة، لم يؤمروا بالسجود لآدم، فهم في شغل شاغل دائم بربهم منهم القائم أبداً، ومنهم الراكع أبداً ومنهم الساجد أبداً لا يفترون عن تسبيح الحق وتقديسه، فهم المهيمون في حضرة الجمال، لما أوجدهم ربهم تجلي لهم باسمه الجميل فهيمهم وأفناهم عنهم، فلا يعرفون نفوسهم فهم في الحيرة سكارى، فكيف يدرون آدم وكيف يدرون خلقاً وهم المشار إليهم من قوله تعالى لإبليس الرجيم (..مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) (....أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) فالاستفهام الأول تقريري أي قد استكبرت، والثاني استفهام إنكاري أي لست من العاليين.

أما كلمة ملائكة في اللغة فهي من مقلوبات الكلمات: من المألكة، والألوكة، وهي بمعنى الرسالة، فالملائكة هم الرسل، لهذا دخل إبليس الرجيم في أمر السجود لآدم فهو من الملائكة من حيث الاسم لا من حيث الجنس فقد كان ممن يوكل بالرسائل.

أما العالون فهم من الملائكة من حيث الجنس لا من حيث الاسم، فهم ليسوا رسلاً.. وهم العالون عن العالم العنصري المولد فهم أعلى نشأة، أما لإنسان فهو أكمل نشأة فهو جامع لخصائص الموجودات، ففيه الملك وغيره، فله فضيلة الجمع، ولهذا جعله الله معلم الملائكة.

ولا نعني بارتقاء الإنسان على مكانة الملائكة مطلق الإنسان، بل هي خصوصية لمحمد صلى الله عليه وآله ولمن هو على قدمه إتباعاً، لذلك كانت له صلى الله عليه وسلم في الآخرة جنة مخصوصة.. فالمقام المحمود وهو أرفع منازل الجنة- كما أخبرنا عليه السلام- مقام لا ينبغي إلا لرجل واحد، فليس لنبي مقرب أو عبد مصطفى قدم في هذا المقام، ولا مطمح إلا في مثلية المقام لا عينه، ونعني بمثلية المقام أنه لما كان شغل النبي عليه وآله السلام بأمته عظيماً ادخر سؤله ربه للشفاعة في أمته، وسأل أمته سؤل المقام المحمود له، فتؤمن الملائكة على دعاء الداعي وتقول ولك مثله، فلما كان المقام لا ينبغي إلا لواحد كان لغيره المثلية، والمثل غير العين.

ومن مسميات الملائكة ما أمروا به من ربهم فهم الصافات والزاجرات والتاليات والمرسلات والناشرات والفارقات والملقيات والنازعات والناشطات والسابحات والمدبرات والمقسمات، هم سائلو الرحمة من ربهم للذين آمنوا (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ ومَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنُونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ).

حب النساء

سأل فكري عبد الحق الشيخ ابن عربي:

– وما مراد الحق من الإنسان؟

رد الشيخ من فوره:

– محمد عليه وآله السلام.

ثم استرد الشيخ قائلاً:

– دعنا– من مقام الاستبصار والاستمطار من التنزيل القرآني– نطرح مبحث عن كيف أن النبي صلى الله عليه وآله، كان أول خلق الله من حديثه عليه السلام حين سأله الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري: ما أول ما خلق الله؟! فقال عليه السلام: "نور نبيك يا جابر".. ومن قوله عليه السلام "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين".

ولما كانت القيود العقلية لا تحيد عن الدلائل المادية، إلا بمقاييس منطقية، ذهب من ذهب إلى السكون إلى معنى أن حقيقة نبوة محمد قبل خلق آدم هو وجوده في علم الله.

.. وللحق هذا جواب غير كاف ولا شاف، فكلنا كان لنا وجود في علم الله، وكذا الأنبياء– عليهم السلام– كان معلوماً نبوءاتهم في علم الله، فعِلم الحق تعالى سابق أزلي قبل أن يخلق ما خلق، ولم يزل الحق موصوفاً بهذا العلم والعالم معدوم لا ظهور له، لم يتجدد له تعالى علم عند تجدد الإنشاء تقدس عن ذلك.

وأما السبيل لمعرفة ذلك مذاقاً– أعني الحقيقة المحمدية– فلا مناص من تسليم العقل لأنوار الإيمان، فنرى محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً يشهد خلق

آدم وإن احتجبت جسما نيته بزمن التأخر في المولد والبعث بالرسالة، أما الكيفية فالتساؤل عنها لا يقدح في الإيمان، بل قد يكون سبيل اليقين والاطمئنان!

فأول ظهور لآدم قبل نفخ الروح فيه: جسم مسوي من طين!

وندعو صاحب البصر المادي بالنظر إلى شكل الجسم الآدمي متأملاً، وإلى حروف اسم محمد، ووجه التقابل بينهما:

سيرى تقابلاً بين تدوير الرأس وحرف الميم الأولى من الاسم، ثم يرى تقابلاً بين إرسال يد لإنسان مع جنبه وبين رسم حرف الحاء، وتقابلاً بين تدوير البطن ورسم حرف الميم الثانية، والرجلان في انفتاحهما مع رسم حرف الدال.

..فكمل خلق آدم على هيئة رسم اسم محمد، ليكون مشيراً إليه ودالاً عليه، وكفى بذلك آية لصاحب البصر.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– قلت هذا لصاحب البصر المادي، فكيف بمحمد إن نظرناه بالبصيرة؟

واصل الشيخ حديثه:

– أما من نظر بالبصيرة فليقف مع الآية القرآنية التالية، وليدع لخواطر الإيمان مجالاً.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا * ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُّنِيرًا) الأحزاب/٤٥–٤٦.

من تربة الكعبة- بيت الله الحرام- كانت تلبية الحق بالطاعة، قبل أن يُخلق الإنسان، إذ خاطب الله السماوات والأرض (فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) الآية.. فأجاب موضع الكعبة من الأرض، وما يعلوه من السماء المسمى بالبيت المعمور، فشرفهما الحق على سائر البقاع وكانا محلاً للإيمان، ووضعت الملائكة في الأرض قواعد لحفظ تلك البقة الأرضية من وطء الأقدام، حتى جاء إبراهيم عليه السلام فرفع القواعد من البيت وإسماعيل وأعلى البناء.

وقد سبق ظهور الجن وجود الإنسان، فإبليس- عدو الإنسان- عاش يتعبد الله في الأرض أربعين ألف سنة، فجال في الأرض وصال، وداست أقدامه- وبنوه- جبال الأرض وسهولها فخطاه في شتى المواضع إلا موضع الكعبة المحفوظ، لذلك فقد أُمرنا أن لا نتبع خطوات الشيطان الموجودة في طينة بشريتنا.

فلما أُمر بقبض طينة آدم- حين شاء الله خلق الإنسان- أُخذت من سائر الأرض طيبها، وخبيثها، وأُحضرت طينة محمد من تربة الكعبة ووضعت في آدم وهو بعد طين لا روح فيه، وكانت- الطينة المحمدية- هي موضع القلب من جسمانية آدم.

يقول الشيخ بن عربي:

فلما أذن الحق سبحانه بنفخ الروح في تلك الشبح الآدمي، نُفث في القلب- المحمدي- نداء (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ..) فنُبئ محمد حين غشيه النداء، وآدم حينذاك بين الماء والطين، فكان شاهداً في القلب الآدمي، مبشراً في بسطه ونذيراً في قبضه وسراجاً منيراً، إذ هو متسع الحق تعالى "لم تسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن" الحديث.. فسرت

في آدم نسمة الحياة بنبض ذلك القلب، وأُلقيت فيه أنوار العلوم والمعارف، ونبئ بغيب السموات والأرض، فكان أعرف مخلوق بربه.

وكان سجود الملائكة لذلك السراج المحمدي في القالب الآدمي، التماسا للعلم بهوية الحق تعالى.. فأهل السماء يطلبون الله حثيثاً كما يطلبه أهل الأرض، وليس ثَمَ من مركب للبلوغ إلا في ركائب من يعرف الطريق، وذلك قوله عليه السلام "أنا أعرفكم بالله.." الحديث.. فالكل في حِلَق الحيرة يدندن.

ولد محمد عليه السلام على تلك البقعة من الأرض التي كانت منها طينته الآدمية، لتأتنس جسما نيته، فاهتز العرش طرباً لقدومه، فمن قبل كتب الله على قائمة العرش "لا إله إلا الله" فاضطرب العرش لعظيم اسم الله، فلما أضاف- تعالى- "محمد رسول الله" سكن العرش وائتنس.

فلما بلغ محمد من العمر الكمال نودي: اقرأ! فنظر إلى كثيف جسماً نيته فقال: ما أنا بقارئ!

فتغشاه الروح الأمين حتى بلغ منه الجهد، فتذكر ما نسي من شأنه ورأى نقله من الأصلاب الطيبة إلى البطون الطاهرة من لدن آدم.

تذكر ما نُبئ به من قول (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ..) فقرأ محمد باسم ربه الذي خلق، فعرج إلى الحق وسجد واقترب، فأوحى إلى عبده ما أوحي.

فعُلم القرآن وأوتي جوامع الكلم، وتفرد بالكمال الإنساني، فهو البشري.. ولكن! "لست كهيئة أحدكم" الحديث.. وهو صاحب رسالة الله إلى الخلائق ولكن! دون حجاب بهم ولا وقوف معهم" لي وقت لا يسعني فيه غير ربي" الحديث.

في مقامه الأرضي اجتاز الأهوال، والمحن، والآلام، والأسقام، والأحزان والتهكم، والسخرية، والهمز، واللمز، والشانئان، بكلمة ترجمها لسانه: "إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي".

.. وفي مقامه العلوي اجتاز مقامات العروج ومنتهاها، فإنما سميت سدرة المنتهى حيث تنتهي أوهام الخلائق وتنقطع، فلا يتقدم أحد ولا يجتاز! كما جاء في مقولة جبريل عليه السلام "لو تقدمت شبراً لاحترقت".

.. اجتاز العروج وصعد بمحفة الاصطفاء، حتى وصل إلى مقام سمع فيه صريف الأقلام، فزالت عنه وحشة الوحدة ورهبة التدني، وانتفى المكان في لقاء ربه (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) فلو قيل قاب قوسين فحسب، لحُدد للحق تعالى مكان، فكانت (أَوْ أَدْنَى) لنفي الأين! وإشارة للقرب.

فأشهده الحق ما أشهده (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) فكان سر من سر في سر!

وكان إيمانه عليه السلام عن مشاهدة وعيان.. وكان إيماننا إتباعاً وسلوكاً، فمن تحقق بهدية فلا شك أنه لاحق، وبحبه وإتباعه واصل.

يقول الشيخ بن عربي:

– كان صلى الله عليه وآله وسلم شاهداً منذ البداية، ومبشراً لشيعته وأتباعه، ونذيراً لمن خالفه، وداعياً إلى الله عن إذن ربه، وسراجاً هادياً لكل بشري، منيراً في قلبه بأنوار الهداية، فلما سرى النور إلينا أجاب الكل عن تساؤل الحق تعالى يوم الإشهاد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) وبقيت فينا علائق ذلك النور، وبه ولد كل مولود، وهذا معنى قوله عليه السلام "يولد الإنسان على الفطرة".

فلما كان مراد الحق من الخلق الإنسان، كان معنى الإنسان محمداً عليه وآله السلام.

قال السيد فكري عبد الحق للشيخ الأكبر:

– هناك من يقول بمنع التأويل للقرآن استناداً للآية القرآنية (..ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ومَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ).

قال الشيخ الأكبر:

– القائل بالمنع فهم بإيقاف علم التأويل على الله تعالى، التباساً منه على الوقف اللازم على لفظ الجلالة في الآية أثناء التلاوة، أما الوقف على لفظ الجلالة، فهو لازمة أدب من التالي، وتنزيه لله في أن نشرك معه أحداً في ضمير جمع أو عطف، كما قال النبي عليه وآله السلام للأعرابي الذي جمع بين الله ورسوله بضمير واحد حين وقف خطيباً فقال الأعرابي: من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن يعصهما... فاستوقفه النبي عليه السلام بقوله بئس الخطيب أنت.

فكري:

– ولكن الله عطف معه النبي في آيات كثيرة.

قال الشيخ الأكبر:

– يعطف الحق تعالى معه ما يشاء، فهو قول الحق! ولكن ليس لنا نحن الجمع بين الله وما دونه، كشأن القسم فلا يصح أن نقسم بغير الله.. فإن أقسم الله بالشمس فذلك له تعالى، فهو تعالى لا يقسم بها إلا لكونها من آياته، فكأن الحق تعالى بقسم بذاته، برب الشمس.

وواصل الشيخ:

– أما إيقاف علم التأويل على الله تعالى، فهو فهم غريب! فالقرآن نزل بلسان عربي مبين أي واضح، على قلب محمد، ولم ينزل طلاسم ولا ألغاز، فوعاه النبي وأدركه، فكأن شأنه عليه وآله السلام كما قيل عنه:

"قرآنا يمشي على الأرض" وبلغ عليه السلام ما أنزل عليه وما علمه، ولم يخص أحداً عن أحد بأذن الواحد الصمد، فقال "... ألا هل بلغت" قالوا بلغت يا رسول الله فقال "اللهم فاشهد".

بل ويقدح في رتبة المؤمن أن يظن أن النبي غاب عنه تأويل حرف من حروف القرآن.

نظر لي الشيخ الأكبر باهتمام وهو يواصل:

– العلوم ليست كلها كسبية تطالع في كتب أو تؤخذ من أفواه الرجال، فهناك علوم تورث إرثاً! وعلوم كشفية يبصرها العارفون بنور الله، وعلوم وهبية تلقي إلهاماً في قلوب من شاء الله من عباده، أما من فقد المذاق فقد ينكر على سليم الذوق كما قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم!

يقول تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرِينَ) فالإنزال على القلب، والقلب محل التقليب لهذا اختلفت وتنوعت الآيات، بين توحيد ودلائله، وبين أحكام ومعاملات، وبين قصص وإنباء غيب، وخطاب للعقل، ودعوة للفكر والتدبر ودعوة للإبصار والتذكر، وتبشير ووعيد.

ولما كان التنزل من غيب، ولغة الغيب تخرج عن حدود العقل والتقييد فتطلب الأمر التأويل.

والتأويل ليس في القرآن فحسب بل أيضاً لكلام الأنبياء، فمحمد عليه السلام أوتي جوامع الكلم، وهي تتطلب الإيجاز في التعبير بعيداً عن الإسهاب وفضول الكلام، كقوله عليه السلام "خلقت الملائكة من نور والجان من نار، وخلق الإنسان مما وصف لكم" فقوله عليه السلام "مما وصف لكم" لاختلاف الخلق في الإنسان، من تراب، من نطفة، وخلق آدم خلاف خلق حواء، وخلق عيسى بن مريم يختلف وخلق سائر البشر.

فأراد النبي عليه السلام الإيجاز وهذا من جوامع الكلم.. فكلام الرسول ليس ككلام سائر البشر فهو لا ينطق عن الهوى، فكلامه يتطلب التأمل والتأويل، وبدون التأويل فلا إدراك ولا بلوغ.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– ولمن يرجع الفضل في علوم التأويل؟

قال الشيخ:

يرجع الفضل في علوم التأويل إلى أئمة اتقوا الله فعلمهم الله.. اتقوا الله حيث سارعوا بقدم الصدق حين سمعوا خطاب الحق لهم (وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...).

.. فلما أخلصوا لله دهرهم، تفجرت ينابيع الحكمة، ففاضت قلوبهم أنواراً ملألأة بعبرات من تباريح هواهم، فكان حديثهم علوياً، يصل حتماً إلى قلوب الأبرار: حتى يؤذن له في الدخول، لذلك كان من أقوالهم "أنوار أُذن لها في الوصول، وأنوار أُذن لها في الدخول".

.. ولا دخول إلا لمحرم بلباس الإخلاص، طائفاً بكعبة التداني.

هؤلاء الأئمة المقربون: سيئاتهم حسنات الأبرار.. فكيف بحسناتهم؟!

.. من صدقهم كانت صديقيتهم، حيث وقفوا على أعتاب مطلبهم، فألقوا سمعهم إلى مؤنسته لهم، كلمهم، فأنصتوا لحديثه، فعُلِموا من لدنه علماً، فكان منهم ما أعطاه هذا العلم العجز، فوقف على حد علمه قائلاً:

- العجز عن درك الإدراك إدراك.

.. وكان منهم من أعطاه العلم الصمت، إلا أنه تأوه لصمته فصاح بإفصاح دون بواح:

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا!
ولاستباح رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يؤنونه حسنا!

وكان منهم من خط قلمه بفيوض الحقائق والفهوم، وما خطوا إلا نسخاً من لوح المعارف المحفوظ.. فيضاً عن الكريم الأكرم.. فكانت علومهم عن ربهم (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ).

قال فكري للشيخ الأكبر:

- يقول النبي عليه وآله السلام "أحب من دنياكم ثلاث الطيب والنساء و...

الشيخ الأكبر مقاطعاً:

- بل قال عليه السلام: حبب إلي ولم يقل أحب ولا أحببت!، وابتدأ بالنساء! ثم الطيب، وبقية الحديث "وجعلت قرة عيني في الصلاة".

قال فكري للشيخ الأكبر:

– لا تؤخذني!.. كنت أنوي سؤالك عن تأخير ذكر الصلاة، والآن أضيف إلى سؤالي كيف قدم عليه السلام النساء!

يقول الشيخ الأكبر:

– هذا الحديث من جوامع الكلم، ويتطلب رفقاً وتدبراً وسعة فهم فاستمع لقولي في مقام مصافحتك قوله تعالى من أول سورة النساء:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا ونِسَاءً...) آية ١ النساء:

استأنف الشيخ الأكبر حديثه:

– لما اقتضت حكمة الحق تعالى: ظهور الإنسان، ليكون دليلاً على ربه– حيث خلقه على صورته– من حديث النبي (ص): "خلق الله آدم على صورته".. ولا يُفهم من الصورة معنى الشكل والمادية– نقدس الله– بل هي قابلية آدم لمجالي الأسماء الإلهية.

وقد كان محمد (ص) هو أكمل موجود من هذا النوع الإنساني.. فبه بُدئ الأمر وخُتم، فكان نبياً وآدم بين الماء والطين ثم كان بنشأته العنصرية، خاتم النبيين، فكان أدل دليل على ربه، فإنه أوتي جوامع الكلم، التي هي مسميات أسماء آدم.

.. وقد قال صلى الله عليه وسلم في باب المحبة، التي هي أصل الموجودات: "حُبب إليّ من دنياكم ثلاث، النساء والطيب وجُعلت قرة عيني في الصلاة".

فابتدأ بالنساء وأخرّ الصلاة!.. وذلك لأن المرأة جزء من الرجل في أصل ظهور عينها- فهي مخلوقة عنه ومنه- ومعرفة الإنسان بنفسه مقدمة على معرفته بربه.

فإن معرفته بربه نتيجة عن معرفته بنفسه، لذلك قال عليه السلام "من عرف نفسه عرف ربه".. فكان محمد (ص) أوضح دليل على ربه، فإن كل جزء من العالم دليل على أصله الذي هو ربه.

.. وإنما حُبب إليه- عليه السلام- النساء فنحن إليهنَّ من باب حنين الكل إلى جزئه، فأبان بذلك عن الأمر من جانب الحق في قوله تعالى في نشأة الإنسان (ونَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي..) ثم وصف نفسه تعالى بشدة الشوق إلى لقائه فقال لداود "قل للمشتاقين إلى أني أشد لهم شوقاً".

وقد جاء عن النبي (ص) "إن أحدكم لن يرى الله حتى يموت".. فشوق الحق لهؤلاء المقربين من كونه تعالى يراهم، فيُحبُ أن يرى ويأبى المقام ذلك- حيث لابد لهم من مركب الموت- كما قال تعالى في حديث التردد"... وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره ساءته ولابد له من لقائي".. فبشره، وما قال له ولابد له من الموت لئلا يغمه بذكر الموت، بل قال "ولابد له من لقائي".. فاشتاق العبد لرؤية ربه.. وأبان له الحق أنه أشد شوقاً! وما ذلك إلا لكونه خلقه على صورته.

تابع الشيخ الأكبر حديثه:

.. ولما اشتق الله تعالى للإنسان شخصاً منه، سماه امرأة فظهرت له بصورته، فحن إليها حنين الشيء إلى نفسه، وحنت إليه حنين الشيء إلى وطنه،

فحُبب- لهذا السر- إلى محمد (ص) النساء لوقوع المناسبة.. فكان تخلقاً بشأن الحق تعالى في حب من جعله على صورته، فما وقع الحب إلا لمن تكون عنه، وقد كان حبه — عليه السلام- لمن تكون منه وهو الحق.

فلهذا قال "حُبب" ولم يقل أحببت من نفسه، لتعلق حبه عليه السلام بربه- الذي هو على صورته- حتى في محبته لامرأته فإنه أحبها بحب الله إياه تخلقاً إلهياً إذ هو القائل "تخلقوا بأخلاق الله".

.. ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة، وليس في صورة النشأة العنصرية أعظم من وصلة النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها، لذلك أُمر بالاغتسال منه، حتى تعمه الطهارة كما عمّه الفناء عند حصول الشهوة، فالحق تعالى غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغير، فطهره بالغسل ليرجع بالنظر إليه فيمن فنى فيه.

.. وحديث النبي (ص) حُبب إلى من دنياكم ثلاث: النساء... فسماهن نساء- وهو جمع لا واحد من لفظه- ولم يقل امرأة، رغم أنه عليه السلام يقصد المرأة.. وذلك مراعاة منه عليه السلام تأخرهن في الظهور عن الرجل، فإن النسأة هي التأخير: قال تعالى (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) وهي التأخير في إعلان الشهر، ويقال البيع بنسيئة، أي بتأخير، فقصد عليه السلام ما يعنيه لفظ النساء لنفهم عنه.

... وبتأخير ظهور المرأة عن الرجل.. نزلت عن درجته، لقوله تعالى (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ).. كما نزل المخلوق على الصورة عن درجة من أنشأة على صورته، فبتلك الدرجة تميز بها عنه فكان غنياً عن العالمين.

.. فكان حب محمد (ص) النساء عن تحبب إلهي، فمن أحب النساء على هذا الحد فهو عن تحبب إلهي، ومن أحبهن على جهة الشهوة الطبيعية خاصة فقد نقصه علم هذه الشهوة.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– ولم قال عليه السلام "ثلاث" ولم يقل ثلاثة بالهاء، الذي هو لتمييز العدد للذكران، إذ أن الحديث فيه ذكر الطيب وهو مذكر، وعادة العرب أن تغلب التذكير على التأنيث فتقول (الفواطم وزيد خرجوا) ولا تقول (خرجن) فغلبوا التذكير وإن كان واحد، على التأنيث وإن كن جماعة.

قال الشيخ الأكبر:

– النبي (ص) عربي، فراعى المعنى الذي قصد به في التحبب إليه، فإن تغليب التأنيث في هذا العرض هو لإظهار المقصد، فأنت أستوقفك تغليب التأنيث، وهذا الاستيقاف مقصود للتأمل ويعضد المفهوم.

ثم استرد الشيخ:

.. ويعضد أيضاً ما ذهبنا إليه من فهم حديث النبي (ص) "لو كنت آمراً أحداً بالسجود لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها".

.. فالحق تعالى خلق آدم بمباشرة فقال "بيدي" حيث قال (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ).. فليس بين الحق تعالى وبين مخلوقه واسطة تبعده، فلم يُخلق الإنسان إلا عنه وإليه– دون مفاصلة ولا مواصلة– وخُلقت المرأة من الرجل فهو ربها وعلة خلقها، فكانت له بمثابة الصورة، وكان لها بمثابة ربها.

ولجام الشريعة حجبها عن السجود له- من مقام التمييز والتنزيه للحق عن المماثلة- فلا سجود لغيره.. وقوله عليه السلام "أوصيكم بالنساء" ولم يزل عليه السلام يكررها، تنبيها للرحمة- التي هي شأن الله- فيكون أداء الرجل مظهراً للرحمة، كشأن من هو على صورته معه (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) ويكون أداء المرأة كحُكم السجود إلى ربها.

هكذا كان حبه صلى الله عليه وسلم للنساء.

قال فكري عبد الحق للشيخ الأكبر:

- سيدي أسمح لي أن أسألك:

هل قلت أن جسد المرأة ليس بعورة؟!!

قال الشيخ:

- لم أقل ذلك، إنما قلت مذهبنا أن حد العورة في المرأة كحد العورة في الرجل (وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ).. والآية وصف لفعل الرجل والمرأة ولماذا يخصفان عليهما من ورق الجنة؟! لأنهما بدت لهما سوءاتهما، فحد العورة وهو السوءة سواء فلم يخص أحد عن أحد، وقلت أن المرأة أُمرت بالستر لا من مقام العورة، وإنما لأمر مشروع ورد بالستر، ولا يلزم أن يستر الشيء لكونه عورة.

قال فكري للشيخ الأكبر:

- أحب النبي عليه وآله السلام المرأة تخلقاً إلهياً، فماذا عن الطيب وقرة العين؟!

قال الشيخ الأكبر:

- تحدثنا عن سر تقدم النساء، وأن حبهن هو عن تحبب إلهي، وهو كحنين الشيء إلى نفسه، والأصل إلى فرعه.. ثم كان (الطيب) وسطاً بين النساء

والصلاة فتعلقه من النساء وجعله بعدهن، لِما في النساء من رؤائح التكوين، كما قيل في المثل السائر "أطيب الطيب، عناق الحبيب" والطيب ضده الخبيث، وقد قال عليه السلام في خبث الثوم: "هي شجرة أكره ريحها" ولم يقل أكرهها، فالعين لا تكره، وإنما يكره ما يظهر فيها.

.. ولما انقسم الأمر بين طيب وخبيث، حبب إليه عليه السلام الطيب دون الخبيث، ووصف الملائكة بأنها تتأذى من الروائح الخبيثة، فما حُبب إليه إلا الطيب من كل شيء.. ومتعلق الطيب من الصلاة: هو حنين العبد إلى ربه، ففي الطيب رؤائح المكوّن، وذاك قوله عليه السلام "أني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين".

.. فلما عاين الشارع المناجاة للصلاة فقال عليه السلام الحديث وفيه "... وجُعلت قرة عيني في الصلاة" فكان إعلاماً منه بأنه مشاهد للحق فيها على وجه أتم من مشاهدة الإتباع في قوله في الإحسان" أن تعبد الله كأنك تراه" فالقرة: من الاستقرار، فستقر العين عند رؤيته، فلا تنظر شيء غيره، لذلك نهى عليه السلام عن الالتفات في الصلاة، وأن الالتفات شيء يختلسه الشيطان من صلاة العبد فيحرمه مشاهدة ربه.

والصلاة مناجاة بين الله وبين عبده.. كما قال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) فهي عبادة مقسومة بين الله وبين عبده نصفين، كما ورد بالخبر للصحيح عن الله تعالى "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ..... "ولم يذكر من المقسوم سوى فاتحة الكتاب لا هيئات الصلاة من قيام وركوع وسجود.

".. يقول العبد بسم الله الرحمن الرحيم: يقول الله ذكرني عبدي، يقول العبد الحمد لله رب العالمين: يقول الله حمدني عبدي، يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله أثنى عليّ عبدي، يقول العبد مالك يوم الدين: يقول الله مجدني عبدي فوّض إليّ عبدي "فهذا النصف كله له تعالى خالص.

ثم يقول العبد "إياك نعبد وإياك نستعين: يقول الله هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.." فأوقع الاشتراك في هذه الآية.. "يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين: يقول الله هذه لعبدي ولعبدي ما سأل".

.. فعلم من هذا وجوب قراءة الفاتحة- ومن أسمائها سورة الصلاة- فمن لم يقرأها لم تجز، صلاته، وما صلى الصلاة المقسومة بين الله وبين عبده، واعتبار الأئمة من أهل الله في ذلك، هو أن المصلي يناجي ربه والمناجاة كلام، والقرآن كلام الله، والعبد قاصر أن يعرف في نفسه ما ينبغي أن يكلم به ربه وقت مناجاته التي دعاه إليها في صلاته، فعلمه ربه كيف يناجيه، وبماذا يناجيه.

فلما قال تعالى ".. ثم يقول العبد الحمد لله رب العالمين" فهو إخبار من الحق تعالى.. يتضمن تعليم العبد ما يناجيه به، ".. فيقول: "حمدني عبدي" الحديث، فما ذكر في حق المصلي إذا ناجاه أن يناجيه بغير كلامه، ثم عين له من كلامه أم القرآن، إذ كان لا ينبغي أن يناجيه إلا بكلامه وبالجامع من كلامه وهي أم القرآن.. فهذا سر ذهاب الأئمة إلى وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة.

ومن أسرار وعلوم سورة الصلاة الكثير، وفي شأنها قال وارث العلم النبوي الإمام علي عليه السلام: "لو كتبت في فاتحة الكتاب، ما وسعت كتبي

سبعين وقرأ" فعلومها لا تحصل من استذكار كتب، ولا من أفواه الرجال، ولكنه الفتح المبين من فيض الكرم على قلوب المتقين.

أما عن المشاهدة فلما كانت المناجاة ذكراً، ومن ذكر الحق فقد جالس الحق، فإنه صح في الخبر الإلهي أنه تعالى قال "أنا جليس من ذكرني" ومن جالس هو ذو بصر رأى جليسه، فهذه مشاهدة ورؤية، فإن لم يكن ذا بصر لم يره، فإن لم يره فليعبده بالإيمان "كأنه يراه" فيتخيله في قبلته عند مناجاته، ويلقي السمع لما يرد به عليه الحق.

.. وما ثم عبادة تمنع التصرف في غيرها- مادامت- سوى الصلاة لكون الحق تعالى فيها ذاكراً، وذكر الحق في الصلاة أكبر، فقد قال تعالى (إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) فصلاة ذكر من الله وذكر من العبد، وذكر الله لعبده حين يجيبه في سؤله والثناء عليه أكبر من ذكر العبد فيها، لأن الكبرياء لله تعالى، وقد قال (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) فإلقاء العبد السمع لما يكون من ذكر الله إياه فيها.

.. وإن كان كلام الله تعالى للعبد من وراء حجاب وذاك قوله (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ) فإن المشاهدة هي عن تجلي الحق تعالى للمصلي بطريق الامتنان، فهو راجع إليه تعالى لا إلى المصلي، فكان قوله عليه السلام: ".. وجعلت قرة عيني في الصلاة"، فلم ينسب الجعل إلى نفسه بل امتنان من الله تعالى عليه، فكانت مشاهدته التي تقر بها عينه، فكان عليه السلام يتوق شوقاً إلى الصلاة المكتوبة- كونها توقيت الحق تعالى للقاء عبده- فكان يقول "أرحنا بها يا بلال".

.. وكان من أحواله عليه السلام إذا سمع المؤذن للصلاة- كما يقول راوي الحديث-" يقوم من بيننا وكأنه لا يعرفنا" فكانت الصلاة دخولاً في الحضرة الإلهية في جمع حب بين الله وعبده.. فإنه تعالى يقول (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) وهم الذين يكثرون الرجوع إليه سبحانه في كل حال، ولا حال أشرف من الصلاة لجمعها بين الشهود والمناجاة، ويقول تعالى (ويُحِبُّ المتَطَهِّرِينَ) والطهارة من شروط الصلاة.

والصلاة تبدأ بالتكبير- إحراماً- والتسليم للتحلل منها فأما التكبير فهو خروج العبد من مقام الدنيا إلى حضرة الحق تعالى للمناجاة والمشاهدة، أما التسليم فهو عودة إلى مقام الدنيا.. وعلى من يسلّم؟! على نفسه وعلى من حضره، والسلام لا يلقى إلا من غائب، والمصلي كان غائباً عن نفسه وعمن تركهم حين أحرم بالتكبير.

والصلاة طاعة واجبة في كل الأحوال فلا يمنع أداءها مانع وقد يمنع حال الاضطرار الالتزام بهيئات الصلاة، ولكن لا حال اضطرار يسقط أدائها، حتى في لقاء العدو وقت التسايف- وهو وقت الالتحام للقتال- وهو غير صلاة الخوف، فصلاة الخوف إنما شرعت في أحوال الاستعداد للجهاد والقتال وما هو عين الجهاد والقتال.

أما المسايف فهو عين القتال، والمسايف مأمور في ذلك الوقت بالصلاة وهو الوقت الذي أمر الله فيه بالثبات والاستعانة بالصبر والصلاة، فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ).. ثم توعد من لم يثبت فقال: (يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ومَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصِيرُ) يعني إن قُتل على

هذه الحالة والفرار في تلك الحالة من الكبائر.. فأمره بالصبر (واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ) وهو حبس النفس عن الفرار في هذا المقام (والصَّلاةِ) فأمره بالصلاة وأنها من الأمور المعينة له على خذلان العدو فجعلها من أفعال الجهاد، فوجبت الصلاة عليه كما وجب الصبر، فأحرى بالعبد إيقاعها فهي بشرى بأنها من أسباب النصر.

أما كيفية صلاة المسايف فيصليها بقدر الإمكان ما استطاع فإنه تعالى يقول: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) ويقول تعالى (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وسْعَهَا).

علق فكري عبد الحق على حديث الشيخ الأكبر:

– فكانت الصلاة مقام جمع العبد بين يدي ربه، فعسانا ندرك– في صلاتنا بين يدي– من نقف فتخشع القلوب والجوارح، فنكون عرضة لقرار العين فيها امتنانا وفضلاً وما ذلك على الله بعزيز.

قال الشيخ الأكبر:

– تجليات الوقت تدور في فلك الأزمان.. يقول النبي صلى الله عليه وآله "إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها".. والتعرض لنفحات الحق تعالى إنما يكون بالقيام بما يتطلبه المقام، فلم يكلفنا الله عز وجل بالصلاة، بل بإقامة الصلاة، وهو القيام بما ينبغي من المصلي وأولها أن يعلم بين يدي من يقف وأن يتحقق بذلك، فيخشع قلبه، ومن ثم جوارحه، فيكون قيامه مناجاة، وسجوده قربا، وجلوسه مؤنسة، أما إن كانت الصلاة من قلب ليس فيه حضور، فحكم المصلي حال ذاك هو ما قاله النبي صلى الله عليه وآله لمن لم يتم ركوعه وسجوده".. اذهب فصل فإنك لم تصل"!!

قال فكري عبد الحق للشيخ الأكبر:

– الصلاة مناجاة! فكيف الصوم؟!

قال الشيخ الأكبر:

– الصوم هو تحقق العبد بأوصاف سيده!

ثم أردف قائلاً:

الطاعات على العموم بين قول وفعل إلا الصوم فإنه ترك، والترك لا تعمل فيه!، والصوم وإن كان عبادة يؤديها العبد حيث كتب الله عليه الصيام، إلا أنه تلبس العبد بأوصاف ربه!، فهو خروج عن مادية البدن ومتطلباته، وسمو عن سفليات القول ولغو الكلام.

.. وقد جاء عن النبي عليه وآله السلام لمن سأله أن يأمره بأمر يأخذه عنه.. فقال عليه السلام: "عليك بالصوم فإنه لا مثل له"، فالعبد حال صومه يتحقق بأوصاف لا مثل لها، وما لا يماثل هو الكامل على الحقيقة!

فالشرع قد نعت الصوم– من طريق المعنى– بالكمال الذي لا كمال فوقه، حيث أفرد له الحق تعالى بابا خاصا وسماه باسم خاص يطلب الكمال، يقال له باب الريان منه يدخل الصائمون، والري هو درجة الكمال في الشرب، فإنه لا يقبل بعد الري الشارب شرباً أصلاً، ومهما قبل فما ارتوى، فالري لا يقبل المزيد، وذاك وصف الكمال.

يقول النبي صلى الله عليه وآله "إن في الجنة بابا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال أين الصائمون، فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم أغلق فلا يدخل منه أحد" لم يقل عليه السلام ذلك في شيء من منهي العبادات ولا مأمورها إلا في الصوم، فبين بالريان أنهم حازوا صفة كمال العمل، إذ اتصفوا بما لا مثل له.

والصوم ترك- لا فعل- فالشارع نهى الصائم فقال لا يرفث، ولا يصخب، فما أمره بعمل بل نهاه أن يتصف بعمل ما، ثم أمره أن يقول لمن سابه أو قاتله "إني صائم" أي تارك لهذا العمل الذي عملته أنت أيها المقاتل والسلب فترة الصائم نفسه- عن أمر ربه- عن هذا العمل.

قال فكري للشيخ الأكبر:

- أمل أن تصحح فهمي للحديث القدسي "كل عمل بن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به"... هل الطاعات إنما يؤديها العبد لنفسه فهل يصلي لنفسه وهل يحج لنفسه؟! وهل سيجازي الله الصائم بنفسه.. ومن سيجازيه على باقي الأعمال؟!

قال الشيخ الأكبر:

- قال تعالى "كل عمل بن آدم.." ..لم يقل المؤمن!.. وعمل بن آدم ما بين طاعات ومعاص!

فقوله تعالى "كل عمل ابن آدم له... " أي له نعت!.. إلا الصوم فإنه لي".. فلما كان العبد موصوفاً فإنه ذو صوم واستحق اسم الصائم بهذه الصفة، ثم بعد إثبات الصوم له سلبه الحق تعالى عنه وأضافه إلى نفسه فقال " إلا

الصوم فإنه لي" أي صفة الصمدية وهي التنزيه عن الغذاء ليست إلا لي، وإن وصفتك بها- يا عبدي- فإنما وصفتك باعتبار تقييد ما من قيود التنزيه لا بإطلاق التنزيه الذي لا ينبغي إلا لجلالي.

"وأنا أجزي به" فكان (الحق تعالى) جزاء الصوم للصائم إذا انقلب إلى ربه ولقيه بوصف لا مثل له وهو الصوم، ولا يقال في الصوم ليس كمثله شيء، فإن الشيء أمر ثبوتي أو وجودي، والصوم ترك، فهو معقول عدمي، ووصف سلبي، فهو لا مثل له لا أنه ليس كمثله شيء.. فهذا الفرق بين نعت الحق في نفي المثلية (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وبين وصف الصوم بها.

قال فكري للشيخ الأكبر:

- عفواً! لم أفهم المقصد من قوله تعالى: " ..وأنا أجزي به).

لشيخ الأكبر: أي أنا جزاؤه!... كقوله تعالى (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) فيتشح لعبد بالصفات الصمدية التي هي صفة الحق تعالى".

قال فكري للشيخ الأكبر:

- كان النبي عليه وآله السلام يفطر على رطبات، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن تمرات، حسا حسوات من ماء، فلم قدّم عليه السلام الرطب.

قال الشيخ الأكبر:

- ذلك لكون الرطب أحدث عهد بربه من التمر، كما فعل السلام في المطر حين نزل، برز بنفسه إليه، وحسر الثوب عنه حتى أصابه المطر، فلما سئل عن فعله ذلك فقال عليه السلام "أنه حديث عهد بربه".

قال فكري عبد الحق:

– وماذا عن مجالي شهر رمضان؟!

قال الشيخ الأكبر:

– أما عن مجالي شهر رمضان فأعظمها مجالي القرآن العزيز ففيه نزل وذلك لمناسبة بينهما– كما كانت الصلاة لا تصح إلا بالقرآن، لمناسبة بينهما– يقول النبي صلى الله عليه وآله "الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس تغدو: فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" فجعل عليه السلام النور للصلاة والبرهان للصدقة وهي الزكاة، والضياء للصوم والحج وهو المعبر عنه بالصبر لما فيهما من المشقة.

فكانت الصلاة نوراً والصوم ضياء، والنور حجابا لقوله صلى الله عليه وسلم" نور أني أراه" أي النور لا تتمكن أن تدركه الأبصار، لأنها تضعف عنه فهو حجاب على نفسه بنفسه، والضياء ليس كذلك! فالضياء روح النور، والرؤية لا تتحقق إلا بالضياء، فكانت الصلاة مشاهدة من وراء حجاب، فهي مناجاة بين العبد وربه، (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ) وكان الصوم لقاء وتحقق.

والقرآن نور وضياء، فهو (نور) من حيث ذاته، لأنه لا يدرك لعزته! وهو (ضياء) لما يدرك به، ولما يدرك منه.

فمن أُعطي القرآن فقد أُعطي العلم الكامل، فبه صح لمحمد عليه السلام (جوامع الكلم) فعلوم الأنبياء والملائكة، وكل لسان علم، فإن القرآن يتضمنه ويوضحه لأهل القرآن بما هو (ضياء). فكان الضياء مناسبة بين القرآن والصوم وكان النور مناسبة بين القرآن والصلاة.

فرض علينا الله عز وجل صوم النهار، وسن لنا النبي الأكرم قيام ليلة بالقرآن، وفي ترك النوم تحقق بالصفات الصمدية كشأن الصوم.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– جاء في الحديث "للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه عز وجل فرح بصومه.

يقول الشيخ الأكبر:

– فأما فرحه بفطره حيث تعود النفس الحيوانية إلى طبائعها التي خرجت عنها بالترك والحبس عن الغرائز.

وأما فرحته عند لقاء ربه، فتلك فرحة النفس الناطقة، وهي ليست فرح باللقاء!– بما في اللقاء من فرحة– بل عند اللقاء! وبماذا يفرح؟!.. فرح بصومه– كما جاء نص الحديث– لإدراكه حينذاك بما حمله من صفات تحضره عند اللقاء وما ثم إلا الخلع الصمدية ولحوق العبد بدرجة نفي المماثلة، فيكون أهلا للقاء ربه، ويكون ربه جائزته، بظهور الصفات الربانية في ذلك العبد، فيلاقي من ليس كمثله شيء بما لا مثل له!

قال فكري للشيخ الأكبر:

– وُصف الصوم والحج بالصبر، وقد أبنت لنا أن صبر الجسد والنفس عن شهواتها هو ظهور للصفات الصمدية وهذا معنى الصوم فكيف بالصبر في شريعة الحج؟!

قال الشيخ الأكبر:

الحج في اللغة هو تكرار القصد، (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) فهو أمر للناس كافة أن يقصدوا البيت الحرام.. ولنقف لنتأمل ما علينا لله تعالى، هل هو مجرد قصد أماكن حددها المشرع وأداء لمناسك تبدو كالألغاز؟!

ومن مقام التسليم والإتباع للنبي الأكرم حيث أمرنا "خذوا عني مناسككم".. فنؤديها كما أداها عليه وآله السلام، ومن ثمار التسليم والاقتفاء نحظى بفتح الفتاح، فنعي المناسك ونحل الألغاز.

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) قرئ لفظ (حِجُّ) بكسر الحاء وهو الاسم، وبفتحها وهو المصدر، فمن قرأ بالفتح (حَجُّ) وجب عليه أن يقصد البيت ليفعل ما أمره الله به أن يفعله عند الوصول إليه في المناسك، ومن قرأ بالكسر وأراد الاسم (حِجُّ) فمعناه أن يراعي قصد البيت– فيقصد ما يقصده البيت– فيقوم في الكسر مقام البيت، وبين هذا المعنى وذاك بون بعيد.. فإن العبد بفتح الحاء يقصد البيت قصد مكان، فإن وصل إلى الكعبة المكية طُولب أن يراعي ما تقصده الكعبة فالكعبة تنشد البيت المعمور وتطلب ساكنها، ولما كان قصد البيت قصداً حالياً (أي قصد بالحال) لأن البيت يطلب بصورته الساكن، فالله على الناس أن يجعلوا قلوبهم كالبيت، تطلب بحالها أن يكون الحق تعالى ساكنها، فوجب على العبد أن يطلب قلبه ليرى فيه آثار ربه.

ويوافق مدلول القراءتين ما قيل في شأن الحج، الحج حجان!، وبما يصادق القراءتين كون الكعبة كعبتين! كعبة أرضية، وكعبة علوية (الكعبة المكية- والبيت المعمور) وكلتاهما يعمرها إبراهيم عليه السلام ففي الكعبة الأرضية (واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى).. وفي السماء السابعة- مقام إبراهيم العلوي- البيت المعمور يحج له كل يوم وليلة سبعون ألفاً من الملائكة- كما جاء في الخبر النبوي.

ولما كانت الكعبة المشرفة.. محل الطاعة والمسارعة إلى إجابة ربها..(قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) ولما كان العبد مطالبا أن يقصدها حاجاً وأن يقصد ما تقصده، وجب عليه آنذاك طاعة ربه وسجود قلبه أبدا كما هي الكعبة.

ساح سهل بن عبد الله التستري زمنا يبحث عن إجابة لسؤله: متى يُرفع القلب من السجود؟! حتى وجد شيخا يكاشفه بما ينشده قائلاً له من فوره: إذا سجد القلب فللأبد! أي لا يرفع من السجود أبداً!!

يقول الشيخ الأكبر:

ومناسك الحج منظور دنيوي لمواقف ومشاهد وحقائق الآخرة، (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) لم يقل على المسلمين أو المؤمنين، بل الناس كافة- فالآخرة لا تخص طائفة دون أخرى، بل الكل يحشر، والكل يُبعث، ولهذا صح حج الطفل الرضيع مع علمنا بأنه لا تلفظ له بالإسلام ولا معرفة له بنية الحج، فنسب الحج لمن لا قصد له فيه، وإن كان الرضيع قصد- بوجه ما- ما صح أن ينسب إليه الحج، وهو الحقيقة الفطرية لليوم الآخر، لذلك لم يتصف المتقون بالإيمان باليوم الآخر، بل باليقين! فقال تعالى في شأنهم (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

وفطرية الرضيع الإسلام، والآخرة هي الإسلام العام، فليس فيها كافر ومؤمن، بل الكل يعود إلى فطرة "بلى" والكل يجيب الحق مسارعاً إذا دعاهم للسجود في موطن الآخرة، إلا من سبق عليه القول فإنه يجيب ولكنه لا يقوى على السجود، ويكون منعه من السجود أشد ألما وعذابا من أحقاب يلبث فيها في السعير (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ...) وهو يوم البعث وأهواله، وهو معنى الكشف عن ساق- يقال كشفت الحرب عن ساقها إذا اشتد الطعان وحمى الوطيس- (ويُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ).

أما زمان عرفة ففيه وقفة تأمل، إن بصرناه سيجلي لنا عن سر من أسرار المناسك، فإن العلماء لم يختلفوا على زمان عرفة، ويبدأ من بعد الزوال حتى فجر يوم النحر، فإن الرسول صلى الله عليه وآله، ما وقف إلا بعد الزوال وبعدما صلى الظهر والعصر، أما من وقف بعرفة قبل الزوال فما حج إن فارق عرفة ولم يرجع ووقف بعد الزوال، أو يقف ليلته تلك قبل طلوع الفجر.

ونستحضر مألوفات العرب وما تواطئوا عليه في اصطلاحهم لزمان الليل والنهار، فنجدهم يقدمون الليل على النهار فيقال ليلة الجمعة، ويقصدون الليلة السابقة لنهار الجمعة، أما نهار الجمعة فيأتي بعده ليلة السبت، وتلك الفطرة العربية في الزمان.. جريا على الأصل، فإن موجد الزمان وهو الله تعالى يقول (وآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) فجعل الليل أصلاً وسلخ منه النهار كما تسلخ الشاة من جلدها فكان الظهور لليل، وكان النهار مبطنا فيه كجلد الشاه ظاهراً كالستر على الشاة حتى تسلخ منه، والأصل عالم الغيب سُلخ منه عالم الشهادة، وهو وجودنا من العدم.

أما العجم الذين حسابهم بالشمس، فيقدمون النهار على الليل، ولهم وجه يصح به هذا التقديم- ليس المقام الحديث عنه الآن- أما في عرفة فاجتمع العرب والعجم، وظهر حكم العجم في الشرع العربي يوم عرفة، فإن العرب والشرع أخروا ليلة عرفة عن يومها كما فعلت الأعاجم أصحاب حساب الشمس، فكانت ليلة عرفة هي الليلة التي يكون صبيحتها يوم النحر، فاجتمع العرب والعجم على حكم واحد بشأن عرفة، لكون الشارع شرع أنه من أدرك عرفة فقد أدرك الحج، والحج عرفة.

وإن كان اليوم الكامل بليلته هو من غروب إلى غروب عند العرب، ومن شروق إلى شروق عند العجم، فإن ذلك في سائر الأيام إلا يوم عرفة فإنه ثلثا يوم، نهار من بعد الزوال حتى الغروب، وليله من الغروب حتى الفجر، أما الثلث الذي يسبق عرفه من قبل الزوال فهو ليس من عرفة فلا يعتد بالوقوف قبل الزوال.

سبب ذلك أنه لما اعتبر في عرفة أنه مقام المعرفة بالله التي أوجبها علينا فكان لا ينبغي أن نسمى عارفين بالله حتى نعلم ذاته وما يجب لها من كونها إلها، ومعرفة حقيقتها، فلما بحثنا بالأدلة العقلية وأصغينا إلى الأدلة الشرعية أثبتنا وجود الذات وأثبتنا الألوهية لها، وتلك هي ثلثا المعرفة، أما معرفة حقيقة الذات أو حقيقة الألوهية فلم نصل إليها، بل لا يمكن الوصول إلى ذلك عقلاً وشرعاً، وشأن الخائض في حقيقة الذات الإلهية كالواقف بعرفة قبل الزوال، ولهذا كان زمان عرفة ثلثي يوم!

أما عرفة المكان، فلما كانت مناسك الحج تفصح عن مواقف الآخرة وأحوالها، ولما كان الحج عرفة، كان مقصد الناس زمان عرفة لمعرفة الحقائق

... ومكان عرفة وموقعه في اليوم الآخر (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ) فوادي عرفة غير مألوف ولا مسكون ولا مأهول من قبل أهل الحرم ولا من عموم الحجيج كشأن أرض الآخرة.

قال فكري عبد الحق:

ولكن في عصرنا الحالي يا سيدي قام أهل الخير بزراعة أرض عرفة، فهل علينا في ذلك من شيء؟!

قال الشيخ الأكبر:

– إن فطرية أرض عرفة ومقصد جمع الحجيج بها تدعونا إلى تساؤل: هل يعد تشجير عرفة وزراعتها أمراً مستحسنا أو بدعة حسنة؟!.. وإن كان المقصد من زراعتها التخفيف على الحجيج ورفع المشقة، فما أدرانا أن المشقة أمر مقصود في الحج! كشأن جهد ومشقة الآخرة.. أليس التخفيف في أمر قصدت فيه المشقة هو رد لأمر المشرع؟!.. قد يقول قائل أن الأمر من مقام إماطة الأذى عن الحجيج من وهج الشمس والرياح الساخنة فيكون الأمر عن ضرورة، ونقول بأنه لم يغب عن المشرع ذلك فلم يفعل ولم يأمرنا، والدين ليس بالاستحسان.. بل غاب عن المستحسن أن العلماء قد أجمعوا على أن إماطة الأذى عن ضرورة في الحج تجب له كفارة (أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ....).. فإن كان تشجير عرفة من هذا المقام فما هي كفارته، وعلى من تقع الفدية؟!

قال السيد فكري:

– اللهم اغفر لأمة محمد.. اللهم استر أمة محمد.. اللهم اجبر أمة محمد.

قال الشيخ الأكبر للسيد فكري:

– القرآن العزيز هو كلام الله المتعبد بتلاوته وفيه تحدي الثقلين– المكذبين والمتشككين– ليس تحدياً بأن يأتوا بمثله فحسب، بل بسورة من مثله.. ولا جرم أن التحدي إنما يكون لغير المؤمنين به، وقد جاء القرآن العزيز محكم الآيات، وهو محفوظ بهذا الإحكام الذي لا يدركه فهما إلا من هو على فطرية اللغة تذوقاً وإلفا بتركيب العبارات، فيعلم أن التغيير للعبارة أو للكلمة بل حتى للحرف، قد يخرج المعنى عن مضمونه.

ومن نماذج ذلك مقولة عيسى بن مريم عليه السلام فيما جرى على لسانه: (..إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) المائدة ١١٦، فقد يجري سهواً على لسان التالي (الغفور الرحيم) بدلا من (العزيز الحكيم) وقد يسائل نفسه– إن أدرك خطأه– عن الفرق اللغوي، وهل للإبدال أثر جوهري في المعنى؟!.

وكذا الأمر في إبدال كلمة الرحمن موضع الرحيم أو العكس.. وقد لا يدرك غير الملم بأصول اللغة الاختلاف بين عبارة (بالليل والنهار).. وعبارة (بالليل وبالنهار).

ويسائل من غاب عنه ذوق الأسلوب البلاغي في لغة العرب عن القسم بالتين والزيتون، وأي خصوصية لمادتيهما عن سائر المزروعات حتى يقسم بهما.

وأمثالها كقول هارون لموسى عليهما السلام (يا بن أم) ومعلوم أنه ابن أبيه أيضاً! وقول (يا أخت هارون) ومعلوم أن مريم لم يكن لها أخوة! وكقول إبراهيم عليه السلام لأبيه (إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ) ولم

يقل من الجبار أو القهار، وكثير من نماذج تدعو إلى تساؤلات والتي لابد من معرفة طريقة العرب ودربٍ اللغة للوقوف على معانيها وإشاراتها ومراميها.

قال فكري عبد الحق:

– وما الفرق بين كلمة الرحمن وكلمة الرحيم؟!

قال الشيخ الأكبر:

– الرحمن كُنية الله فهو قرين لاسم الذات.

وفي مبحث للإجابة عن المعنى اللغوي لكلمة الرحمن، نجد أن "الرحمن" صيغة مبالغة من جذر "رحم"، ويشترك الرحيم في جذر الكلمة، والمعنى اللغوي لكلمة رحيم تتضمن كل ما له علاقة بالرحمة وظاهرها.

والرحمن يسع ذلك فهو يعم الرحيم من حيث الظهور، ويبطن فيه وجود الرحمة في أضدادها، فالرحيم له مجالي فيما يناسبه من حضرات الأسماء، ويحجب عن حضرات أخرى، فلا مجال للرحيم.. في حضرة الاسم القهار.. فأي رحمة تكون من مجالي القهار؟!.

وأما الرحمن فهو يسع جميع حضرات الأسماء وذلك لاقترانه باسم الذات من قوله تعالى (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) والمقصود الاسم الرحمن على وجه النصوص دون أي اسم آخر، فهو أول أسماء الله الحسنى، وهو السابق لأصل الوجود، بل هو علة الوجود "سبقت رحمتي غضبي" الحديث.. فالرحمن مرادف لجميع أسماء الله.

وأسماء الله الحسنى تحمل العديد من الصفات المتشابهة والمتماثلة والمختلفة والمتضادة، فالاسم النافع نقيض الاسم الضار، بمعنى أن حكم النافع خلاف حكم الضار فلا يسع أحدهما الآخر، ولكن يقرنهما اسم الرحمن، فهو يقرن النافع بحكم أن النفع رحمة، ويقرن الضار في وقوع النفع في الضرر، كما وقع من العبد الصالح صاحب موسى عليهما السلام (حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) فهذا مظهر ضرر، ووقعت الرحمة بالعلم الغيبي (وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) فصار الضرر الواقع بالسفينة عين النفع وسبيل النجاة!

ومثاله أيضاً ما وقع لام موسى وحيا (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) فهذا مظهر هلاك، بطن فيه نجاة موسى من القتل!.. وكذا شأن الرحمن مع الاسم المانع، فربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك! فحين يفتح لك باب الفهم في المنع يصير المنع عين العطاء!.

أما اقتران اسم الرحمن بحضرة اسم القهار، فهو اقتران جعل اسم القهار لا ينفرد بالتجلي إلا مع الاسم الواحد، فلم يذكر القهار في القرآن العزيز إلا مع الاسم الواحد، فيقال الواحد القهار! فالواحد يمنع وجود غير، فلا يدرك أحد حقيقة اسم القهار لامتناع تجليه إلا في حضرة الواحد، وهذا هو التواجد السبقي لاسم الرحمن "سبقت رحمتي غضبي".

واستواء الرحمن على العرش من قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) هو تعميم الرحمة على الوجود كله، فلا يفهم أن الله استوى على العرش، بل الرحمن!.. فكما أن العرش يسع السموات والأرض، فكذا وسع الرحمن كل شيء (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

وقد غاب عن الكافرين والمكذبين معاني اسم الرحمن، بل غاب عنهم إدراكهم بما هم فيه من الرحمة، لما خوطبوا بقوله تعالى (وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا ومَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وزَادَهُمْ نُفُورًا) فكان تعجبهم ونفورهم من الاسم الرحمن مع وجود الأمر والتكليف!

فجهلوا حيث ظنوا أن الرحمة لا تقتضي الأمر ولا التكليف فكان استنكارهم: أنسجد لما تأمرنا؟!

وغاب عنهم أن التكليف هو مقام تشريفي ولا يضاد الرحمة، بل هو الرحمة من حيث لا يشعرون.. وحين خصص إبراهيم عليه السلام المؤمنين في دعائه لمكة وأهلها (وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ) كان تكملة الآية خطابا من الرحمن (قال ومن كفر).

ولما كانت الرحمة تقتضي القصاص- وهذا جانب دقيق من الفهم- كان الشأن معهم (فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ....).. أما قول إبراهيم عليه السلام لأبيه (إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ) فلم يقل من الجبار، وذلك لأنه يخاطب أباه وما يقتضي ذلك من رحمة ولطف، ولم يمنعه تلطفه عليه السلام مع أبيه أن يقول حقاً، فالرحمن هو الذي يعايشه أبوه بالحلل، فيخشى عليه أن يتبدل، والمؤاخذة التي قد تلحق أباه يرجو أن تكون من مقام التطهير، فتكون المؤاخذة من الرحمن.

أما قول أبو اليزيد السطامي حين سمع آية (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) قال البسطامي بطشي أشد!!.. فلا يعني منازعة للربوبية كما ذهب من رموه.

بالكفر! بل لم يحضرهم قول النبي (ص) "لا تظنن بكلمة برزت من امرئ مسلم سوء وأنت تجد لها من الخير محملا".

والخير الذي تحمله كلمات أبي اليزيد، أن بطش الحق تعالى وإن كان شديداً فهو بطش تداخله الرحمة من مقتضى اسم الرحمن القرين بحضرات الأسماء الإلهية، أما حين وصف بطشنا فقد قال تعالى (وإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) لذا كان قول أبي اليزيد: بطشي أشد!.

وقد سمع أبو اليزيد آية (يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وفْدًا) فضرب الدمع من عينيه، بل يقال طار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر! وقال يا عجبا كيف يحشر إليه من هو جليسه؟!.. وقد وقف أبو اليزيد مع حاله في معايشة اسم الرحمن فلم ير أن المتقي معايش لاسم الجبار، فيحشر منه إلى الرحمن ليقيم (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) وتلك الآية هي آخر سورة القمر، ويأتي بعدها مباشرة (الرحمن).

فبالرحمة الإلهية منح الله الوجود لكل موجود، فتجليه بوجوده على كل موجود هو رحمته التي يرحم بها هذا الموجود.. ألا تراه تعالى يقول في الحديث القدسي "مرضت فلم تعدني" ولم يخصص المريض مؤمنا كان أو كافراً!.. "لو عدته لوجدتني عنده".. ذلك هو الرحمن.

إسلام للجميع!

قال فكري عبد الحق للشيخ الأكبر:

– وجدت في رسم القرآن العزيز اختلافاً في رسم كلمة إبراهيم في سورة البقرة عنها في باقي السور فما هو سر ذلك؟!

قال الشيخ الأكبر:

– دعني أحدثك أولاً عن فتوة أبي الأنبياء خليل الرحمن، وستجد إجابتك فيها!

ثم تحدث الشيخ:

– اسم الصالح من خصائص العبودية، والأنبياء سلام الله عليهم هم صفوة مراتبها، فجميعهم صالحون عند الله، فهم بين سائل الصلاح: (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) وبين مشهود له بالصلاح، كما قال تعالى في شأن يحيى عليه السلام (نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) وفي شأن عيسى عليه السلام.. (وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ) وفي حق إبراهيم عليه وآله السلام (وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) وفي حق محمد عليه وآله السلام (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) فشهد له الحق، فعرفنا أنه تولاه، وأخبرنا أنه يتولى الصالحين.

وأوجب علينا الحق تعالى ونحن في حضرته– في صلاتنا– السلام عليهم، فنقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

أما عن تخصيص ذكر صلاح الآخرة في حق أبي الأنبياء صلى الله عليه وآله، فهو من أجل الأمور الثلاثة التي صدر منه في الدنيا، وهي قوله في سارة أنها أخته، وقوله إني سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم.. فبهذه الثلاثة يعتذر

يوم القيامة للناس إذا سألوه فتح باب الشفاعة، ولهذا ذكر الله تعالى صلاحه في الآخرة لبيان أن الأمر ليس كما توهم.. وليس كما أشاع من نسب لإبراهيم الكذب!!.

فحاشاه عليه السلام ذلك، فاعتذاره يوم القيامة- كشأن عيسى عليه السلام- من أجل ما قيل لا من أجل ما قال!.. فإن خُلق الأنبياء الصدق أبداً، وقد كان النبي عليه وآله السلام يمزح، ولا يقول إلا حقاً.

قال فكري للشيخ الأكبر:

- ولكن الشرع قد أباح الكذب في مواطن، منها الكذب على الأعداء، وإبراهيم عليه السلام قد صرح بما جرى على لسانه في القرآن (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ).

قال الشيخ الأكبر:

- لم يكن قوله عليه السلام من هذا المقام، فقوله (إِنِّي سَقِيمٌ) فتلك حقائق الأنبياء على الإطلاق، فهم مكلفون بإبلاغ رسالة وإتباع أمر الله، ومراعاة قصده تعالى فيما أرسلوا به فالكل في مقام (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) تلك التي قال عنها وأمثالها نبينا الأكرم "شيبتني هود".

فرسالة إبراهيم هي تكسير أصنام في قلوب ومعتقدات قومه وعشيرته، وإلى من يتوجه بدعوته، وأبوه صانعها، وبائعها ومتعبدها!.. فهو أبداً سقيم حتى يؤدي رسالته.

وقوله في سارة أنها أخته، فقد ورد قوله عليه السلام لها (فإني لا أعلم أحدا على الأرض مؤمنا غيري وغيرك) فهي أخته بتأويل الإيمان (إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

أما قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ..) فقد أخطأ المشركون حيث لم يفهموا عن إبراهيم ما أراد بقوله، بل وغاب عن المفسرين ففهموا الكذب من إضافة الفعل في عالم الألفاظ إلى كبيرهم.

والكبير على الحقيقة هو الله.. وهو الفاعل المكسر للأصنام بيد إبراهيم، فإنه يده التي يبطش بها، فكان قصده عليه السلام بكبيرهم: الله تعالى! وإقامة الحجة عليهم في قوله (فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) فهم يخبرونكم بصدق قولي.

ولو نطقت الأصنام- حينذاك- لنسبت الفعل إلى الله لا إلى إبراهيم فإنه مقرر عند أهل الكشف أن الجماد والنبات والحيوان قد فطرهم الله على معرفته والتسبيح بحمده، فلا يرون فاعلاً إلا الله، ومن كانت تلك فطرته.. فكيف ينسب فعلا لغير الله؟!

فكان عليه السلام على بينة من ربه لأنه ما قال لهم سلوهم إلا في معرض الدلالة، سواء نطقوا أم سكتوا، فإن نطقوا لقالوا: الله، وإن لم ينطقوا يقول لهم: لم تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم من الله شيئاً.

وقد قال تعالى في دلالة إبراهيم لقومه (وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) فنسب الحق تعالى الحجة إلى نفسه، فأداء إبراهيم عليه السلام.. من مقام (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) ومن مقام (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى).

علق فكري عبد الحق على قول الشيخ الأكبر: حري بنا- نحن المحمديين- ألا ننصاع وراء مقالات يرددها الشاردون من بني إسرائيل في شأن أنبياء الله، وإن كان ناقل الكفر ليس بكافر، إلا أنه من اللازم لناقله أن يفنه، فإن لم يملك ذلك فليحم سمعه وأسماعنا!

استمر الشيخ الأكبر في حديثه:

- ومع القرآن العزيز في شأن خليل الرحمن نقف على سيرته الموصولة بنا، فنجد ذكره- عليه السلام- في صلاتنا، وفي تسميتنا بالمسلمين، وفي قبلتنا ومناسكنا، وحسبنا من سيرته فتوته، قال تعالى على لسان قومه: (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) فأطلق الله على ألسنة قومه فُتوته عليه السلام، لأنه قام في الله حق القيام! فالفُتوة هي نعت القوة، وكانت فتوته إيمانية، فباع نفسه في حق أحدية خالقه- لا في حق خالقه- لأن الشريك ما ينفي وجود الخالق، وإنما يتوجه على نفي الأحدية، فبدت فتوته في وقوفه منفرداً أمام قومه موحداً، فحق له أن يكون وحده أمة (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً).

تلك بدايته، فلما غزاه الشيب أصبح أبا للأمم، وقد جاء في كتب بني إسرائيل أنه عليه السلام كان اسمه إبرام ثم باركه الله ووعده بذرية تملأ طباق الأرض وأبدل اسمه إلى إبراهام، ومعناه "أبو الأمم".

وإن كنا من أخبار بني إسرائيل على حذر، فلا نصدقهم ولا نُكذبهم، إلا أننا نجد قولهم في القرآن العزيز في إشارة ذهل عنها من تعرضوا لتفسير القرآن!، فنجد في رسم المصحف لكلمة إبراهيم في أول سورة القرآن رسمها هكذا (إبراهم) ثم باقي سور القرآن يتغير رسم الكلمة إلى (إبراهيم).. فتغيير حرف يكفي عوضاً عن حكاية! وهذا هو جوامع الكلم.

قال فكري عبد الحق:- إذن تغيير رسم كلمة إبراهيم كان إيجازاً لسرد قد يطول عن تغيير اسمه وما يعنيه هذا التغيير من مفهوم!

الشيخ الأكبر مبتسماً:

- أبوك مرحوم!.. فالقرآن جاء ليضع الأمور في نصابها، ليصدق ما سبق من كتب، وليفند تشويش فكر ولبس فهم، فسرد الحقائق صريحة، وما لا يدرك إلا بالخفاء أجلاه بإشارات يجدها من ينشد الوقوف على شرفات حقيقة الوجود، بل حقيقة المطلوب!

قال فكري للشيخ الأكبر:

- لا تؤاخذني على المقاطعة، وآمل أن تكمل حديثك عن فتوة أبي الأنبياء.

قال الشيخ الأكبر:

- حاج إبراهيم عليه السلام النمرود (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) وقد حاج من بعد مراتب الإيمان عند كل المؤمنين، ليس في ثبات قلبه حين أوقدوا له النار الموقدة ليلقوه فيها، بل تجاوز ذلك المقام حين آتاه جبريل عليه السلام وهو معلق بين سماء أرضها النار الموقدة! فيسأله: أما لك حاجة مني؟! فكانت إجابته: أما إليك فلا! فيذكره جبريل أن يسأل ربه! فكان جوابه هو ما بهر جبريل، ومن ثم تجاوز كل مراتب الإيمان "حسبي من سؤالي علمه بحالي"!!.. فكان بحق خليل الرحمن.

فإنه لو كان سأل ربه- حينذاك- لكان سؤله حجابا عن مقام الخلة، وهو مقام ينبذ كل واسطة وعلة.

كان من فتوته إيثار حق الله على حظ النفس لأهله (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) فاختار لهم محل قلة الدنيا!

ونتساءل: ولم؟! ويأتي الجواب: (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ) فحقق لهم مقام الصبر ثم طلب لهم الإنس والثمرات (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ) ليس لداعي حظ النفس، بل (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) فحقق لهم مقام الشكر.

وحين خصه الله بالإمامة (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) بادر الحق تعالى بقوله (ومِن ذُرِّيَّتِي)؟! فكان أبا الأنبياء.

أنهى الشيخ الأكبر حديثه عن إبراهيم عليه السلام قائلاً:

– ليس المقصد هو سرد سيرته ومآثره صلوات الله عليه، حيث يطول بنا المقام، ويعجزنا البيان، ولكنه تذكر نبتغي منه استحضار ذكره واستدعاء محبته في قلوبنا وتوقير، عسى أن تلحقنا موالاته بأهل البيت كلحوق سلمان بآل البيت.

.. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

قال فكري عبد الحق للشيخ الأكبر:

– ذكرت يا سيدي مقالة عيسى بن مريم حين يوقفه الله ليسأله (أَأَنتَ قُلْتَ...) والذي جاء على لسانه فيه ذكر الحق تعالى باسمه العزيز الحكيم.

واستأنف فكري سؤاله:

– فلم لم يذكر الحق باسمه الغفور الرحيم؟!

قال الشيخ الأكبر:

– مقالة المسيح بن مريم: مقام محمدي في كلمة عيسوية! فاستمع

غالباً ما يحتاج التالي لآيات القرآن العظيم، لكتب التفاسير للوقوف على كثير من المعاني والفهوم، ولا يقدح عدم فهمه- لما لم يدركه- في إيمانه وخشوعه.. فالإيمان شهود قلبي، والقرآن رياح للقلوب تدركه بلا تعليل، تنهل منه قدر اتساعها.

وقد يحدث لمستمع القرآن- أو تاليه- حال وجد أو تأثر من آية قد يُدرك معانيها وقد لا يدرك، وربما يفهم منها غير ما تعنيه، ومع ذلك تُحرك فيه عاطفة وشجوننا وخشوعاً.

ولكن في مقام طلب المعارف اليقينية والفكرية لفهم معاني القرآن، لابد من مبحث ما يتطلبه كل مقام.. فإن غاب عن التالي له علم اللغة، فقد ينزلق في مزالق قد تحيد به عن العقيدة الحقة، وقد تورث عدم تذوق للإعجاز القرآني، وقد يقع في ضلال وضع الكلم في غير مواضعه أو ينحرف في غياهب الالتباس والتشويش.

ومع تأمل لكلمات القرآن العظيم وإعجاز عباراته، نقف طويلاً مع آيات من سورة المائدة، نتدبر ما جاء فيها من مفردات مصقولة بإبداع منظوم مُعجز:

(وإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ وكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا

تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) المائدة ١١٦-١١٨.

الآيات تنبئة بشهادة عيسى بن مريم، حين يوقفه الله- يوم الحساب- لسؤاله عن قول عظيم وبهتان مبين جرى على ألسن الناس من قومه، حيث نسبوا الحق تعالى إلى قالب آدمي، جنينا في رَحِم مريم يحويه حلولاً!

فأستقر في عقولهم ومعتقدهم أن عيسى هو الإله!.. فهو يحيي الموتى، ويشفى المرضى، وينزل مائدة من السماء! كيف صاغت واستساغت عقولهم ذلك؟! تقدس الله وتعالى الله علوا كبيراً.

(أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ)

الاستفهام الخبري في السياق القرآني يحمل اتهاماً، والاتهام يفرض على المتهم جوابا، والمتهم رسول الله عيسى بن مريم، والتهمة عظيمة: منازعة ربوبية! بل منازعة ألوهية!، ويشاركه التهمة من قالوا ذلك في شأنه، وهم أمته من الناس، فهو مطالب بثلاث: أن يرعوه ما يقال عن الله، فينزه الحق تعالى أن يقال في حقه جل شأنه ما قيل.. ومطالب أن ينفي التهمة عنه، فلابد لذلك أن يظهر الرب بما ينبغي للرب، وأن يظهر نفسه عبداً بما ينبغي للعبد، ومطالب بموقفه كشاهد بحكم أنه نبي والأنبياء شهداء على أممهم وماذا سيقول في أمته؟!

ولنفي التهمة عنه (أَأَنتَ قُلْتَ) كان يكفي من الجواب قوله (مَا قُلْتُ لَهُمْ) ولكن لما كانت التهمة عظيمة والمقام مقام جلال مهيب، يدركه نبي الله

ويراعي كيف يكون الأدب مع الرب في الخطاب والوصف، فكان جواب عيسى عليه السلام هو إظهاراً للعبودية بيديه في كل كلمة وحرف.

فقال مقدماً التنزيه (سُبْحَانَكَ) فحدد بالكاف التي تقتضي المواجهة والخطاب (مَا يَكُونُ لِي) من حيث أنا لنفسي دونك (أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) أي ما تقتضيه هويتي ولا ذاتي (إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) لأنك الناطق على لساني، كما جاء في الخبر عن رسول الله (ص) في الخبر المروي عن رب العزة "كنت لسانه الذي يتكلم به.." فجعل هويته- تعالى- عين لسان المتكلم ونسب الكلام إلى عبده.

ثم تمم العبد الصالح الجواب فقال (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) فإن نفسي غيب أنت عالم به، وأنت الآخذ بناصيتي، (إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ) فجاء بتأكيد البيان، واعتماداً عليه إذ لا يعلم الغيب إلا الله (مَا قُلْتُ لَهُمْ) فنفي أولاً مشيراً إلى أنه ما هو، ثم أوجب القول أدباً مع المستفهم فقال: (إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ) فأثبت نفسه مأموراً إظهاراً لعبوديته، إذ لا يؤمر إلا من يفترض منه الامتثال (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) فجاء بالاسم الجامع فالمعبود واحد، ثم فرق بقوله (رَبِّي وَرَبَّكُمْ) لاختلاف نسب الربوبية عند كل مربوب (وكُنتُ عَلَيْهِمْ) ولم يقل على نفسي معهم كما قال ربي وربكم، وقدمهم في حق نفسه- حيث قال عليهم شهيداً- (شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ) فالأنبياء شهداء على أممهم ماداموا فيهم (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) أي رفعتني إليك.. وحجبتني عنهم وحجبتهم عني (كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) في غير مادتي، بل في موادهم، فشهود الإنسان نفسه هو شهود الحق إياه.. وأتى بالاسم الرقيب، لأنه جعل لنفسه الشهود، فأراد أن يفصل بينه وبين ربه تنزيها للحق، فهو شهيد لكونه عبداً، والحق الرقيب لكونه رباً.

وكما قدمهم في حق نفسه إيثاراً، أخرهم في جناب الحق عن الحق أدباً في قوله الرقيب عليهم، لما يستحقه الرب من التقديم.. (وأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

فنبه عليه السلام على أنه- تعالى- هو الشهيد على قومه في مادته وموادهم.

ثم قال كلمة عيسوية ومحمدية.. أما كونها عيسوية فإنها قول عيسى بما جاء في الآيات (إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) ولم يقل الغفور الرحيم، وإلا لكان الأمر شفاعة، فالتصريح بالشفاعة في هذا المقام خروج عن لوازم المقام وما يقتضيه من أدب.

فالمقام مقام شهادة، والشاهد لا يعدل عن شهادته لطلب عفو أو عقوبة، والمقام مهيب جليل، فأتى باسم العزيز وهو المنيع الحمى فلا يلحقه من مغفرته لهم شيء، وجاء باسم الحكيم وهو الذي يضع الأشياء مواضعها، فكانت من عيسى عليه السلام تسليماً إلى الله يقتضيه المقام، وكانت تعريضاً بالشفاعة! يرجحها كونهم عباداً، ويحتمل معناها اسمي العزيز والحكيم.

وكان تعريض الشفاعة العيسوي تصريحاً عند محمد (ص) إذ قام بها شفيعاً.

وأما كونها محمدية فلموقعها من محمد (ص) في المكان الذي وقعت به حيث قام ليلة كاملة يرددها لا يعدل عنها إلى غيرها، حتى مطلع الفجر.. وكانت من محمد (ص) سؤالاً وإلحاحاً على ربه في المسألة ليلته الكاملة، يرددها طلباً للإجابة، فلو سمع الإجابة في أول سؤل ما كرر.

كما كان قيام محمد عليه وآله السلام بها فهماً لما تتضمنه من شفاعة خفية.. فكان الحق يعرض عليه فصول ما استوجب العباد به العذاب عرضاً مفصلاً.. فيقول في كل فصل وفي كل عرض (إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...)

فلو رأى في ذلك العرض ما يوجب تقديم الحق وإيثار جنابه، لدعا عليهم لا لهم، ولكن ما تعطيه الآية من التسليم إلى الله والتعريض لعفوه، كان إلحاحه عليه السلام.

وقد ورد أن الحق إذا أحب صوت عبده في دعائه إياه أخر الإجابة، حتى يتكرر ذلك منه، حباً فيه لا إعراضاً عنه، فكان عليه السلام بترداد هذه الآية على علم عظيم من الله تعالى وكان قيامه بها مثابرة ورحمة.. فهو مرسل من أجل ذلك.. (ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ).

قال فكري عبد الحق للشيخ الأكبر:

– وماذا عن قوم عيسى بن مريم وما ابتدعوه من رهبنة لم ينزل الله بها من سلطان؟!

قال الشيخ الأكبر:

– دعني أحدثك عن آية الابتداع ومراتب العبودية.

استمع فكري عبد الحق للشيخ الأكبر وهو يقول:

– الدين هو الذي أتت به الرسل من عند الله، واصطفاه الله على غيره من الأديان (إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ..) ولتعريف الدين الذي اعتبره الله يقول تعالى (إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسْلامُ).

والإسلام هو الانقياد إلى الله، يقول تعالى على لسان يعقوب عليه السلام لبنيه: (....فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُونَ) أي منقادون، والانقياد من عمل العبد فأما الذي هو من عند الله فهو الشرع الذي ينقاد إليه العبد.

فالعبد هو المنشئ للدين- لأن الانقياد عمله- فهو صادر من العبد ولا ينسب إلى الله- إلا بحكم أنه سبحانه الأصل والعبد مظهره- والحق تعالى هو الواضع للأحكام، فالأديان كلها تشترك في هذا المعنى العام للإسلام.

أما أحكام الدين فهي عن طريقين: على يد رسل الله ومن أخذوه عنهم وهي الشرائع السماوية.. وأحكام من عند الخلق وضعوها لأنفسهم، يقصدون بها صلاحهم في دينهم ودنياهم.. فهل اعتبرها الله كشأن الدين؟!

من هذه الأحكام الوضعية- التي هي من عند الخلق- نظم الرهبانية، وقد نزل بشأنها قرآن، ومع الآية القرآنية من سورة الحديد نبحث عن إجابة لتساؤلنا:

(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ورَحْمَةً ورَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).. الحديد الآية ٢٧.

اختلف المفسرون والقراء، فمنهم من رأي فيها- نعني الرهبانية- معنى التحريم ومنهم من رأي فيها بالإباحة، وإن كان الرأي الغالب عند جمهور المفسرين هو الأول، فقد اكتفى الكثير منهم بنص الابتداع ليقول بالتحريم.

قاطع فكري عبد الحق الشيخ الأكبر متداخلاً:

- وورد الحديث "لا رهبانية في الإسلام".

قال الشيخ الأكبر:

– أما الحديث فيقال أنه وضع في القرن الثالث الهجري تأييداً للمفهوم الغالب وحسما للنزع في معنى الآية.. ويرى من قال بالإباحة أن ذكر من اتبع عيسى بن مريم في الآية الكريمة هو مدح صريح، كما أن ذكر الرهبان خاصة قد جاء في القرآن العزيز بمدح صريح (ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ورُهْبَانًا وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) ولم يجد– من قال بالإباحة– معنى للذم أو الكراهية للرهبنة في الآية الكريمة.

وإذا تربثنا في تأمل الآية الكريمة سنجد أنها تحمل عدة أوجه للقراءة وفيها تقديم وتأخير:

فالوجه الأول.. وحسب ترتيب السرد القرآني تكون عبارة.. (إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) جواب لعبارة (مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ).

فتفهم الآية على هذا السياق: (ورَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) أي ما أنزلناها على رسولنا إليهم بل قاموا بابتداعها من أنفسهم (مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) أي برغم أنها ليست من عند الله إلا أن الله اعتبرها كشأن الدين.. فكتبها عليهم.. وأن في إتباعها رضوان الله.. ولكنهم لم يقوموا بحقها (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا).

ولم يبخس الله أجر من صدق في القيام بحقها فكان جزؤه (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ) أي بها (أَجْرَهُمْ) وهذا دليل على اعتبار الله لما ابتدعوه (وكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أي خارجون عن الانقياد بها ومراعاتها.

وبهذا المعنى.. فلا مقام للذم أو الكراهية إلا من قوله تعالى "فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا" الذي هو شأن الفاسقين.

الوجه الثاني وبنفس ترتيب السرد القرآني، مع اعتبار عبارة "مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ".. جملة اعتراضية إيضاحاً للابتداع.. فتفهم الآية على هذا السياق: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ) وأنهم لم يقصدوا في ابتداعها (إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) فاعتبرها الله على ظنهم "أنا عند ظن عبدي بي.." الحديث القدسي، ولكنهم لم يرعوا ما ابتدعوه حق الرعاية.

وبهذا المعنى أيضاً لا مقام للذم أو الكراهية إلا كما في الوجه الأول.

الوجه الثالث.. وفيه تقديم وتأخير، فتقدم في الفهم عبارة (إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) جواب لعبارة (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) فيكون المعنى على هذا السياق (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ...) أي أنهم ابتدعوا الرهبانية.. وأنهم رعوها حق رعايتها بقصد ابتغاء رضوان الله.

وبهذا المعنى فلا مقام للذم إلا في شأن الفاسقين.

ولا مقام للذم أو الكراهية لمفهوم الابتداع في الآية الكريمة على كافة الأوجه.

قال فكري عبد الحق:

– بل أراني الآن أرى وجه استحسان!.. يحتمله السياق القرآني فقد جاء بعد هذا الذكر (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ).

الشيخ الأكبر مبتسماً:

– أبوك مرحوم!

ثم استكمل الشيخ:

ولا نعني من تعرضنا لما سبق الدفاع عن الابتداع أو الدعوة إليه، بل غايتنا مراعاة إخبارات الحق تعالى إذا أخبر، ووعده إذا وعد، وأن هناك علوماً مسكوت عنها، فلا يدركها إلا صاحب كشف وفتوح.

أما عن الرهبانية، فالرهبة هي الخوف والخشية، والخوف شق الإيمان وهو أحد مراتب العبودية، ويقابله لتحقيق الكمال الإيماني مقام الرجاء، فإذا استوى الخوف والرجاء في قلب فذلك المؤمن.

وفي حيرة العبودية وبحثا عن مراتبها وقف أبو اليزيد البسطامي وما وجد سببا يتقرب به إلى الله يحقق عبودة محضة! إذ رأي أبو اليزيد كل نعت يتقرب به فللألوهية فيه مدخل، ولما عجز قال يارب بماذا أتقرب إليك؟ فقيل له (بما جرت عادة الله مع أوليائه أن يخاطبهم به): تقرب إلى بما ليس لي: الذلة والافتقار.

فالاشتراك وإن كان يقع في الأسماء وصفاتها- لا في المسميات- إلا أنه يكون في غاية الحرج للعبد، لتوهم خروج العبد عن أوصاف العبودية، فالعبد معناه الذليل- يقال أرض معبدة أي مذللة- والكافر هو من ستر ما يجب للحق تعالى من التنزيه في الاشتراك.

.. قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ) وما قال تعالى ذلك في غير هذين الجنسين، لأنه ما ادعى أحد الألوهية ولا اعتقدها في غير الله إلا هذان الجنسان، فلذلك خصهما الله بالذكر دون سائر المخلوقات.

وقد قال ابن عباس في تفسير العبودية بالمعرفة، أي ليعرفوني، وهو تفسير غير ما تعطيه دلالة اللفظ، فتفسيره من حيث اللفظ: ليذلوا لي، ولا يذل له من لا يعرفه، فلابد من معرفته بأنه العلي ذو العزة التي تذل الأعزاء، فلذلك عدل بن عباس في تفسير العبادة إلى المعرفة.

ولم يتحقق بهذا المقام على كماله مثل رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان عبداً محضاً زاهداً في جميع الأحوال التي تحرمه من مرتبة العبودية، وشهد الله له بأنه عبد، حين أضافه إلى اسمه الجامع فقال: (وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ..) وقال في إضافته من حيث هويته تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ..) فأسرى به عبداً.

ولما أمر النبي عليه السلام بتعريف مقامه يوم القيامة قيد ذلك!.. فقال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر.." أي ما قصدت الفخر عليكم بالسيادة، بل أراد عليه السلام التعريف، بشري لنا إذ نحن مأمورون باتباعه.

وفي عزة النصر في فتح مكة، دخلها النبي مطاطي الرأس على راحلته فإن عطاء العزة لا يليق بالعبد من وجه فهو داع للتلبس بالعبودية والخشوع.

فالعبد مع الحق تعالى في حال عبوديته كالظل مع الشخص في مقابل السراج، كلما قرب من السراج عظم الظل، ولا قرب من الله إلا بما هو لنا وصف لا له، وكلما بعد السراج صغر الظل، فما يبعدنا من الحق إلا خروجنا عن صفتنا التي نستحقها، وطمعنا في صفته تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ) وهما صفتان لله تعالى فلما نازعه فيها عبده أذاقه من عذاب الجحيم، (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) وهما صفتان لله تعالى لا تليق بالعبد إلا في معرض النصرة لله، كالكبر على الكافرين.

أما عن الابتداع فقد أمرنا الحق تعالى بالفكر فقال (أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ)، والفكر هو استحداث نستعين له بصفحة الوهم والمثال، فيبدع في نفوسنا ما هو جديد، فإن وافق صواباً فنعمت البدعة، فلم يحرم المؤمن في كل زمن من الخير "الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة".. الحديث.

فإن كنا على أثر الرسول اتباعاً في تحقيق العبودية، نكون قد رعيناها حق رعايتها، فالعبد المحض ديدنه الدائم مقصد سيده ولا حظ له ولا مطلب (إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ).

قال فكري عبد الحق للشيخ الأكبر:

– يقول النبي صلى الله عليه وآله "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" فما هو تأويل ذلك.

قال الشيخ الأكبر:

– أما العلو فهو الغيب والملكوت فيناسبه العقائد، وأساسها قول لا إله إلا الله، وأما السفل (أدناها) فتلك المعاملات الأرضية وحقوقها إماطة الأذى عن الطريق فضلاً عن عدم إيقاعه! ومسالمة الموجودات، والحياء مشترك بين العلو والسفل ففي العلويات حياء الملائكة، وقد علمناه من قول النبي عليه السلام".. أفلا أستحي ممن تستحي منه الملائكة".. وفي المعاملات الأرضية فالحياء أساس الأخلاق، وباقي شعب الإيمان لبيان أن الأمر مراتب.

قال فكري للشيخ الأكبر: استوعب الآن قولك يا سيدي، بلازمة التأويل لتجنب الالتباس في فهم الدين نتيجة عدم استيعاب النصوص، الأمر الذي قد يكون أشد خطراً من الأحاديث المدسوسة والموضوعة!

قال الشيخ الأكبر:

– إن من لم يستوعب قول النبي صلى الله عليه وآله "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.. " الحديث.. ووقف مع حرفية الألفاظ، رأى فيها النهي! فقال بتأثيم الترحال لغير تلك المساجد!.. فلما وجد تعارضاً مع أحاديث أخرى تحث على شد الرحال، كطلب العلم مثلاً "اطلبوا العلم ولو بالصين" الحديث.. تحرز قليلاً في مفهومه فأوقف التأثيم إلا على جنس المساجد!..

أما من جمع بين الحديث وبين قوله تعالى (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) فقد فهم نص الحديث بمعنى أفضلية تلك المساجد، وإظهاراً لقدرها، فلم يجد نهياً ولا حرجاً في شد الرحال لغيرها من مساجد الأرض فما على رجل قلبه معلق بالمساجد في سائر الأمصار والأقطار يشد إليها الترحال أيكون آثماً؟!

إن الإيجاز في جوامع الكلم، يجمع بين العطاء الظاهري الذي تحويه الألفاظ، ولم تحجب البصيرة عن المؤمن في فهم الإشارات والتلميحات التي تحملها الكلمات، لهذا تميز القرآن وتميز كلام النبوة، ولم يحرم المؤمن من ظاهر مثمر أو باطن مغدق.

كان النبي صلى الله عليه وآله يصوم ويواصل الصوم أياما ولياليِ، وكان ينهى أصحابه عن الطي والمواصلة، فيقول لهم "لست كهيئة أحدكم، فإنما أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني" ولكن يفهم النهي على أنه تخفيف لا تأثيم، فهو بحكم أنه عليه السلام مشرّع، كان يخشى أن يشق على أمته، وحتى لا يكون الأمر عاماً فتقع عدم الاستطاعة.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– التباس الفهم هو الذي جعل بين الأمة الفرق والتشيع (كلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ).

الشيخ الأكبر:

– إن افترقنا فرقاً وشيعاً هو نبوءة أنبأنا بها النبي عليه وآله السلام، فلا مفر من وقوعها! فيلكن!! ولكن عن علوم لا عن تحجر فهوم.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– ولكن مع من يكون الحق يا سيدي؟!

قال الشيخ الأكبر:

– يقول الحق تعالى: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُونَ) ويقول النبي عليه وآله السلام "الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة".

قال فكري للشيخ الأكبر:

– وكيف نهتدي لتلك الأمة الذين يهدون إلى الحق.

قال الشيخ الأكبر:

– المهديون في تلك الأمة هم آل محمد، والذين منهم كقول النبي عليه السلام" سلمان منا آل البيت"، فأنزله منزلة الآل.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– وبم نال سلمان تلك المنزلة؟!

قال الشيخ الأكبر:

– يقول النبي عليه وآله السلام: "مولى القوم منهم"، ومن سلمان؟!.. أليس هو الباحث عن الحقيقة؟! وحين وجدها أناخ بفكره ولبه وجوارحه فكان مولى لآل البيت.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– وقد قال النبي عليه وآله السلام: "لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من فارس" وأشار عليه السلام إلى سلمان الفارسي.

قال الشيخ الأكبر:

– إن الناظر في قول الله تعالى (قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) سيجد طلب المودة في قرابته عليه السلام، فكيف بأهل البيت وهم أخص القرابة

.. ثم جاء بلفظ المودة وهو الثبوت على المحبة، ولا معنى لثبوتها إلا حصول آثارها بالفعل في الدار الآخرة في الجنة وفي النار! لكل طائفة بما تقتضيه حكمة الله فيهم، فإن من صحت محبته لله ورسوله أحب أهل البيت وواالاهم، ليلحق بركبهم كلحوق سلمان الذي والي شموس الهدي لهذا أشار إليه النبي.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– يقول النبي صلى الله عليه وآله: "اللهم زدني فيك حيرة" فما المقصد من الحيرة؟!

قال الشيخ الأكبر:

– هي حيرة العالم!

ثم أردف الشيخ الأكبر:

.. الحيرة هي نوع خاص من إدراكات المعارف، وهي أن يُرى الحق تعالى في كل شيء ويرى الواحد كثيراً، والكثير واحدا! والأول آخراً والآخر أولاً، والظاهر باطناً والباطن ظاهراً إلى غير ذلك من الأمور المتضادة التي توقع الحيرة، ولكنها لست حيرة الارتباك وسوء الفهم، بل حيرة النفس الهائمة على وجهها الدائبة الحركة في دائرة الوجود من أي نقطة بدأت حركتها على محيط الدائرة وصلت إلى الحق الذي هو مركزها، فالحائر له الدوران حلقة دوبة حول القطب وليس ثم إلا الله!

والحيرة حيرتان! حيرة الجهل التي تورث اليأس والارتباك وهي حيرة الفلاسفة الذين يعتمدون في فهم الوجود على العقل وحده، والحيرة الأخرى حيرة العارف بالله، وهي التي طلب النبي عليه وآله السلام الزيادة منها، وهي حيرة الوصول إلى المأمول لا حيرة الحرمان.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– قال نوح عليه السلام في القرآن العزيز عن قومه (رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي..).. فلم قال رب، ولم يقل إلهي؟

قال الشيخ الأكبر:

– الربوبية صفة لله من حيث كونه ربا يدعى ويستعان به ويتوكل عليه، ومن حيث أفعاله وآثاره في الوجود.. والألوهية صفة لله من حيث كونه إلهاً يعبد ويُقدس ويُجل ويُكرم ويُخشى.. وأخص صفات الربوبية أن الرب مسئول والمربوب سائل.. وأخص صفات الألوهية أن الإله معبود والمألوه عابد، لهذا جاءت الشريعة في العبادة باسم الله وفي السؤل باسم الرب فيقول المصلي: سبحان الله، الله أكبر، لا إله إلا الله، وفي الدعاء ربنا ظلمنا أنفسنا، رب اغفر لي ولوالدي، رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين.. فقول نوح عليه السلام من مقام دعاء.

يقول فكري عبد الحق:

– وما هي أسرار التنزيل ولوازم التأويل للقرآن العزيز؟!

يقول الشيخ الأكبر:

– من مسميات القرآن التنزيل، فالقرآن أنزل جملة واحدة محكم التنزيل إلى السماء (عالم الأمر) ثم فرقانا تفرق نزوله إلى عالم الأرض (عالم الخلق)

أما عن نزوله مجملاً فنجده في قوله تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ) ولا يفهم من (ليلة) زمان الليل، بل إشارة إلى الغيب المستتر.

وفي عالم الأمر نزل القرآن في ليلة (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) فالآيات تستنسخ من عالم الأمر (عالم الملكوت) وتنزل إلى عالم الخلق (عالم الملك).. بما يجاري أحداثا بعينها لتكون تبيانا، وهو ما نسميه بأسباب النزول (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً).

.. فكان القرآن جامعاً للغة السماء (عالم الغيب)، ولغة الأرض (عالم الشهادة) فأما لغته الأرضية فهي اللسان العربي المبين وأما لغة الغيب العلوية فهي مطوية في آياته، باطنة في ظاهره، هي لغة تبلغها المدارك العلوية فينا- وهي أرواحنا- فهي أول من يرهف السمع لآياته، وهو ما نجده من وجد وشجون، وحنين حين نسمع القرآن، فتقشعر جلود وتوجل وتلين قلوب- حتى قبل أن يدرك العقل فينا معانيه- فالأرواح هي الأذن الواعية، لذا كانت لازمة التأويل كقرين للغة الغيب، فإن النبي عليه وآله السلام وقبل نزول القرآن.. كان يوحى إليه بالرؤيا، وكانت رؤياه تأتيه (مثل فلق الصبح) أي رموزها واضحة وتأويلها غير بعيد، ولازمة التأويل للرؤيا لكونها لغة من عالم الغيب.

كذلك الشأن في القرآن العزيز.. فهو منزل من عالم الغيب (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) فنزول القرآن في ليلة يعني في حجب ودثور، ويقابل الليل الصبح، فحجاب القرآن شدة الأنوار (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ) والإعجاز في القرآن إنما هو في ظاهر ستر، النفيس، أما باطنه فهو الغاية وهو مقصد الرسالة.

قال فكري للشيخ الأكبر:

- كيف يكون الأمر في ذات الحق تعالى بين التشبيه الذي يبدو في آيات القرآن وبين التنزيه الواجب له تعالى؟

قال الشيخ الأكبر:

– العلم بالسلب هو العلم بالله سبحانه، يقول تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فهو وصف سلوب، وحين سُئل النبي عليه السلام أن ينعت الحق تعالى نزلت سورة الإخلاص وفيها النعوت الصمدية وهي نعوت سلوب، قال تعالى (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ).. فهو جل وعلا منز، عن نقائص الوصف، ومقدس عن كمالات النعوت!.

فإن قال قائل إن القرآن العزيز قد جاء في آياته تشبيه وتمثيل، وكذا في الأحاديث القدسية وما جاء في الخبر، فنقول "إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم "الحديث.. فأخبر النبي أن العقل لم يدركه بفكره ولا بعين بصيرته كما لم يدركه البصر.

أما المثلية الواردة في القرآن فهي مثلية لغوية لا عقلية!.. لأن المثلية العقلية تستحيل على الله تعالى، ولا نعني نفي إخباريات التشبيه، بل الأمر بين تشبيه وتنزيه معا، فلا تقل بالتشبيه دون تنزيه حتى لا تقع في إساءة للأدب، ولا تقل بالتنزيه المطلق حتى لا تقع في الجهل بالأمر.

قال فكري للشيخ الأكبر:

– وصف الحق تعالى نفسه بصفات تبدو صفات حدوث: كالتعجب، والفرح، والضحك، والتبشش، والنسيان والتردد، والنزول والجوارح: النفس والقدم واليد والعين والأصابع.. فكيف نفهم ذلك؟!

الشيخ الأكبر:

– من غابت عنه مألوفات اللسان العربي يراها صفات حدوث، يقول تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ).

نظر العقل بما يقتضيه الوضع فرأى أن الحق سبحانه منع أولاً أن يقدر قدره!.. لأن العقول الضعيفة يسبقها التشبيه والتجسيم عند ورود الآيات والأخبار التي تعطى من وجه ما من وجوهها ذلك.. (ومَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ).

فقال بعد هذا التنزيه.. الذي لا يعقله إلا العالمون.. (والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ) فإذا نظرنا إلى مألوفات اللغة ودرءبها عرفنا من وضع اللسان العربي أن يقال فلان في قبضتي أي تحت حكمي، وإن كان ليس في يده منه شيء ألبته، ولكن أمري فيه ماض وحكمي عليه قاض، مثل حكمي على ما ملكت يدي حساً وقبضت عليه، كما نقول مالي في قبضتي أي في ملكي وإني متمكن من التصرف فيه، فهكذا العالم في قبضة الحق تعالى.

وتخصيص الأرض في الدار الآخرة هو تعيين بعض الأملاك كما تقول خادمي في قبضتي، وإن كان خادمي من جملة من في قبضتي، فإنما ذكرته اختصاصاً لوقوع نازلة ما.

واليمين هي محل التصريف القوي المطلق، وكني باليمين عن التمكن من الطي فهي إشارة إلى تمكن القدرة من الفعل، فوصل إلى أفهام العرب المعنى بألفاظ تعرفها وتسرع بالتلقي لها، كقول الشاعر:

وإذا مـــا رايـــة رفعـــت لمجـــد تلقاهـــا عرابـــة بـــاليمين

وليس للمجد راية محسوسة!.. فلا تتلقاها جارحة يمين، فكأنه يقول لو ظهرت للمجد راية محسوسة لما كان حاملها ولا محلها إلا يمين (عرابة)، أي أن صفة المجد به قائمة وفيه كاملة.

(التعجب والضحك) فالتعجب إنما يقع من موجود لا يعلم ذلك المتعجب منه ثم يعلمه فيتعجب ويلحق به الضحك، وهذا محال على الله، فإنه ما خرج شيء عن علمه- جل ربنا- فمتى وقع في الوجود شيء كالشاب ليست له صبوة! فهذا أمر يتعجب منه عندنا، فحل عند الله محل ما يتعجب منه عندنا.

..أما الضحك والفرح فهو يخرج إلى معنى القبول والرضا، كما إن غضبه تعالى منزه عن غليان دم طلباً للانتصار، لأنه سبحانه يتقدس عن الجسمية والعرض، ولكن الأمر يرجع إلى أن يفعل فعل من يجوز عليه الغضب، وهو انتقامه سبحانه من الجبارين.. والمخالفين لأمره، فإن قال تعالى (وغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ) أي جازاه جزاء المغضوب عليه، فظهور الفعل (الجزاء) أطلق الاسم.

وكذلك الأمر في النسيان.. قال تعالى (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) وهو تعالى لا يجوز عليه النسيان، ولكن لما عذبهم عذاب الأبد ولم تنلهم رحمته تعالى صاروا كأنهم منسيون عنده وبدا تعالى كأنه ناس لهم، أي هذا فعل الناسي ومن لا يتذكر ما هم فيه من أليم العذاب، لأنهم في حياتهم الدنيا نسوا الله فجزاهم بفعلهم فأعاده إليهم للمناسبة "إنما هي أعمالكم ترد إليكم".. الحديث، ومن هذا الباب اتصاف الحق بالمكر والاستهزاء والسخرية.

قال فكري للشيخ الأكبر:

- وماذا عن تنزل الحق تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة كما جاء من حديث:

"يتنزل الله إلى سماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير من الليل فيقول هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فأعطيه.." الحديث؟!

الشيخ الأكبر:

– الصفات الصمدية للحق تعالى تأبى الانتقال والارتحال، فما فارق الرحمن العرش في نزوله تعالى إلى سماء الدنيا، فهذا من باب رحمته ولطفه، فلا تنزل مكان، فالحق تعالى لا تسعه أبنية، ولكنه تنزل رحمات.

أما مكانية سماء الدنيا، فالدنيا من الدنو، فهي إشارة إلى رحمات قريبة لطلابها، وأما زمانية الليل، فالليل ستر وحجاب، أي هي أعطية رحمات غيبية.. والتوقيت صالح على الدوام، فالليل والنهار في الأرض أبداً حتى (تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمَوَاتُ) والثلث الأخير من الليل إشارة إلى وقت الغفلة، هو دعوة لنا أن نذكره تعالى حين يغفل عن ذكره الغافلون، في أي زمن كنا وأي مكان.

أما الحق تعالى فتعالى أن يحده زمان أو يقله مكان، بل كان ولا مكان، وهو على ما عليه كان، تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها، بل يقال "كان ولا شيء معه" فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه.

كان هذا هو ما أخبرنا به السيد فكري عبد الحق، عما قاله الشيخ الأكبر فقد كان حديثه معه من عالم البرزخ!

مسح الشيخ بن عربي على رأس فكري عبد الحق فعاد إلى عالم الدنيا، فاستودعه الشيخ الذي ما أن صافحه حتى غاب في آلة الزمن عن عالمنا، وسط حيرة من أسئلة عديدة كان يعدها محبوه، وجلادوه.

قال فكري عبد الحق فيما قصه عن أقوال الشيخ الأكبر:

– وما قلته عن الشيخ الأكبر كان من عذب مشربه.. وليس لي من مدخل إلا من كوني مترجماً لا متحكماً.

نظر لي الشيخ شاهد العارف مبتسماً ثم راح في إشاراته:

قتلناك يا آخر الأنبياء.. قتلناك!

ليس جديداً علينا اغتيال الصحابة والأولياء!

فكم من رسول قتلنا!

وكم من إمام ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء

فتاريخنا كله محنة!

وأيامنا كلها.. كربلاء!

قلت له:– يقولون الفتنة نائمة، لعن الله من أيقظها!

التفت إلى السيد فكري عبد الحق قائلاً: بل قل الحقيقة غائبة، رحم الله من أعلنها.